الجمعية الشرعية الرئيسية

السنة النبوية

مكانتها . عوامل بقائها . تدوينها

تأليف
الدكتور عبد المهدي بن عبد القادر بن عبد الهادي
أستاذ الحديث بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَأنزلْنا إلَيْك الذّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إلَيْهم ﴾
سورة النحل آية ٤٤

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾
سورة الحشر آية ٧

﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أمرِهِ أنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أوْ يُصيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾
سورة النور آية ٦٣

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على قائد الدعاة ورائد المصلحين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع الهدى إلى يوم الدين. أما بعد

فهذا كتاب يعرض للسنة النبوية وعوامل بقائها وضرورة ترسم خطاها، وكما اطلعنا عليه فوجدناه كتابا وافيا بالغرض الذي ألف من أجله، ومتفقا مع منهج الجمعية الشرعية التي ترفع شعار التعاون للعاملين بالكتاب والسنة المحمدية، والذي تعتمد السنة بيانا للقرآن الكريم خالدا إلى يوم الدين، ومنهاجا كاملا لنهضة الأمة الإسلامية وعودة مجدها على أساس أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، ونوصي أبناء الجمعية الشرعية في جميع فروعها بتدبر ما جاء في هذا الكتاب والالتزام بما جاء فيه ما دام يتفق مع السنة النبوية المشرفة، وهذا هو رأينا الذي ندين الله به، وبالله التوفيق والسداد، ونسأل الله أن يقينا الزلل في القول والعمل

إمام أهل السنة ورئيس الجمعية الشرعية الرئيسية

فضيلة الشيخ / عبد اللطيف مشتهري إبراهيم

٢ محرم ١٤١٦هـ
٥ يونية ١٩٩٥م

الوكيل العلمي للجمعية الشرعية
محمود عبد الوهاب فايد



الوكيل المالي والإداري للجمعية الشرعية الرئيسية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على قائد الدعاة ورائد المصلحين سيدنا محمد ﷺ وصحبه ومن تبع هديه إلى يوم الدين .

أما بعـد :

فهذا كتاب يعرض للسُّنة النبوية وعوامل بقائها وضرورة ترسم خطاها ، وقد اطلعنا عليه فوجدناه كتابًا وافيًا بالغرض الذى أُلِّف من أجله ، ومتفقًا مع منهج الجمعية الشرعية التى ترفع شعار التعاون للعاملين بالكتاب والسُّنة المحمدية ، والذى يعتمد السُّنة بـيانًا للقرآن الكريم خالدًا إلى يوم الدين ، ومنهجًا كاملًا لنهضة الأمة الإسلامية وعودة مجدها على أساس أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

ونوصى أبناء الجمعية الشرعية فى جميع فروعها بتدبر ما جاء فى هذا الكتاب والالتزام بما جاء فيه من آداب التعامل مع السُّنة النبوية المشرفة ، وهذا هو رأينا الذى ندين الله عليه .

وبالله التوفيق والسداد ونسأله أن يقينا الزلل فى القول والعمل .

٣ محرم ١٤١٦ هـ
٥ يونية ١٩٩٥م

إمام أهل السُّنة ورئيس الجمعية الشرعية الرئيسية
فضيلة الشيخ / عبد اللطيف مشتهرى إبراهيم

الوكيل العلمى للجمعية الشرعية
محمود عبد الوهاب فايد

الوكيل المالى والإدارى للجمعية الشرعية
الحاج / عبده مصطفى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه ، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه ، وكل من اهتدى بهديه ، وسلك طريقهم إلى يوم الدين .

وبعـد :

فهذه بحوث فى التعريف بالسنة النبوية بيَّنت فيها :

- أن السنة النبوية وحى أوحاه الله تعالى إلى نبيه ﷺ.

- أن السنة النبوية مع القرآن الكريم هما مصدر الإسلام وأساسه ، والحكم يؤخذ منهما معاً .

- أن القرآن الكريم نصَّ على حجية السنة ، وعلى وجوب العمل بما جاء فيها .

وبينت أيضاً :

- العوامل التى صانت السنة من أن يلحقها زيادة أو نقص ، أو تحريف أو تبديل ، حتى بقيت صحيحة سليمة كما أوحاها الله تعالى إلى نبيه ﷺ

- تاريخ السنة من حيث كتابتها وتدوينها ، وأن السنة كتبت فى عهد رسول الله ﷺ-أما التدوين - والذى هو ترتيب الأحاديث على نحو ما - فلقد كثر فى نهاية القرن الأول .

ولما كانت السنة النبوية هى البيان الكامل للقرآن الكريم ، وهى حصن

الأمان للأمة من الزيغ والضلال ، والاختلاف والاقتتال ، لما كانت السنة كذلك كان من المهم للمسلم أن يعرف الكثير عنها ، فيعرف مكانتها وقدرها فى الإسلام ، وأسباب هذه المكانة ، وأساس هذا القدر . وكان من المهم أن يعرف الأمور التى تجمعت للسنة فصانتها من أن يعتريها شىء يؤثر فى سلامتها ، أن يعرف الأمور التى بها بقيت السنة صحيحة تامة ، تقرؤها الأمة كما حَدّث بهاﷺ. وكان من المهم أن يعرف تاريخها والأطوار التى مرت بها ، وبخاصة قضية الكتابة والتدوين . كان من المهم للمسلم أن يعرف ذلك وكل ما شابهه مما يتعلق بسنتهﷺ ، كى تكون نظرته للسنة نظرة صحيحة ، وثقته فى السنة كما يجب ، لا يقبل تشكيكاً فقد عرف الصواب .

من هنا كتبت هذه البحوث ، سائلاً ربى عز وجل أن ينفع بها كل مسلم ، وهو سبحانه نعم المسئول ونعم المجيب .

« وما توفيقى إلَّا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » .

عبد المهدى

* * *

مقدمات

- تعريف السنة النبوية .
- عصمته ﷺ في تبليغ السنة .
- فَضْلُ تَعَلُّمِ السُّنَّةِ والتَّمَسُّكِ بها وتعليمها .

السُّنَّة النَّبَوِيَّة

تعريفهـــا :

سنة رسول الله ﷺ هى : أقواله ﷺ ، وأفعاله ، وإقراراته[١] ، وصفاته الخِلْقِيَّة والخُلُقِيَّة .

فمثال أقواله ﷺ : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن »[٢] .

ومثال أفعاله ﷺ : الأحاديث الواردة فى صفة صلاته ﷺ ، وكذا الأحاديث الواردة فى صفة حجه ﷺ ، وقد قال ﷺ : « صلوا كما رأيتمونى أصلى »[٣] وقال : « لتأخذوا عنى مناسككم »[٤] .

ومثال إقراره ﷺ : أن الضب[٥] أُكِلَ على مائدته ﷺ فأقرّ الآكلين ، ولم ينههم عن ذلك[٦] . ومن إقراره أيضاً قول عبد الله بن عمر : « كنا نقول ورسول الله ﷺ حيٌّ أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر وعثمان ، والرسول ﷺ يسمعنا فلا ينكر علينا »[٧] .

---

(١) إقراره ﷺ معناه أن يسمع صحابياً يقول شيئاً فيوافق عليه ولا ينكره عليه ، وكذا أن يرى صحابياً يفعل شيئاً فيسكت ولا ينكر عليه ذلك .

(٢) أخرجه أحمد والترمذى والحاكم عن أبى ذر .

(٣) أخرجه البخارى ومسلم والنسائى وأحمد .

(٤) أخرجه مسلم .

(٥) الضب : حيوان من جنس الزواحف ، غليظ الجسم خشنه ، وله ذنب عريض حرش أعقد ، يعيش فى صحارى البلاد العربية ، ويأكله أهلها نظراً لأن لحمه يذهب العطش ، وهو أصلاً لا يشرب الماء وإنما يكتفى بالنسيم وبرد الهواء ، وهو من الحيوانات المعمرة حتى لربما عاش سبعمائة عام ، ولا يسقط له سن ، وأسنانه كلها قطعة واحدةراجع المعجم الوسيط ج ١ ص٥٥٢ وبه صورة واضحة للضب ، وراجع فتح البارى ٩ / ٦٦٣ ، وراجع كتب الحيوان ومنها « حياة الحيوان الكبرى » للدميرى .

(٦) الحديث أخرجه البخارى فى الذبائح باب الضب ٩ / ٦٦٣ حديث رقم ٥٥٣٧ وفى غير هذا الموضع .

(٧) أخرجه الطبرانى فى الكبير — راجع فتح البارى ٧ / ١٦ وفتح المغيث للعراق ٦٢/١ — وأخرجه أبو داود فى السنة باب فى التفضيل ١٢ / ٣٨١ ، وأصل الحديث فى البخارى فى فضائل الصحابة باب فضل أبى بكر ٧ / ١٦ وفى باب مناقب عثمان ٧ / ٥٣ ، ٥٤ .

ومثال صفاته الخِلْقِيَّة : قول أنس: « كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل البائن[1] ، ولا بالقصير ، ولا بالأبيض الأمهق[2] ، ولا بالآدم[3] ، ولا بالجَعْد القَطِط[4] ، ولا بالسَّبْط[5] » .

ومثال صفاته الخُلُقِيَّة : قول عائشة : « لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً »[6] ، ولا صخاباً[7] بالأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح »[8] .

فأقواله ﷺ وأفعاله وإقراراته وصفاته كل ذلك سنته ﷺ وما يطلق عليه سنة يطلق عليه أيضاً حديث ، فحديثه ﷺ أقواله وأفعاله وإقراراته وصفاته الخِلْقِيَّة والخُلُقِية .

العصمة فى تبليغها :

وهو ﷺ معصوم فى كل ذلك ، حفظه الله فى نطقه فلا يقول إلَّا حقاً ، وحفظه فى فعله فلا يفعل إلَّا صواباً ، وصانه فى إقراره فلا يقر إلَّا ما وافق شرع الله تعالى ، وهو فى خَلْقِهِ أجمل ما خلق الله ، وفى خُلُقه أكمل مخلوق ، وكل ذلك نابع من عقيدة صحيحة جَمَّله الله تبارك وتعالى بها . يوضح ذلك ما وصفه الله تبارك وتعالى به فى قوله سبحانه: ﴿ **والنجم إذا هوى * ما ضلَّ صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلَّا وحى يوحى * علمه شديد القوى** ﴾[9] فيقسم سبحانه وتعالى بالنجم ــ والخالق سبحانه وتعالى

---

(١) البائن معناها الظاهر ، والمعنى أنه ﷺ لم يكن غريباً فى طوله .
(٢) أى ليس شديد البياض .
(٣) الأسمر .
(٤) أى ليس شعره شديد التجاعيد والالتواء .
(٥) أى ليس شعره بالمسترسل الخالى عن التنوءات . وهذا الحديث أخرجه البخارى ومسلم والترمذى ومالك .
(٦) الفاحش : من فى قوله أو فعله قبح . والمتفحش : من يتكلف القبح فى قوله أو فعله .
(٧) شديد الصوت .
(٨) أخرجه الترمذى فى السنن والشمائل .
(٩) سورة النجم الآيات من ١ ــ ٥ .

يقسم بما شاء من خلقه ، أما المخلوق فلا يقسم إلَّا بالخالق — أن محمداً ﷺ « ما ضل » أى ما سار على غير علم ، وإنما هو راشد يسير على علم ، وأنه ﷺ « ما غوى » ما حاد عن الحق ، والصفتان متكاملتان معناهما أنه يعرف الحق ويعمل به . ويبين سبحانه أنه ﷺ « ما ينطق عن الهوى » أى لا يتكلم عن هوى وغرض ، وإنما يبلِّغ الناس ما أمر بتبليغه ، دون زيادة أو نقصان ، كما فى قوله سبحانه: ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بَدِّلْه قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلَّا ما يوحى إلىَّ إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم** ﴾[1] ويبّن ربنا سبحانه أن رسوله لا يقول من عند نفسه ، ولا يزيد فى دين الله شيئاً فيقول سبحانه: ﴿ **ولو تَقَوَّل علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين** ﴾[2] والمعنى : لو كان محمداً زاد فى الرسالة المكلف بتبليغها شيئاً أو نقص منها ، أو قال شيئاً من عنده فنسب إلينا وليس كذلك لعاجلناه بالعقوبة ، فانتقمنا منه باليمين التى هى أشد فى البطش ، وقطعنا منه منبت الحياة وهو القلب ، وما استطاع أحد أن يمنعه من مراد الله ذلك ، لكن الله سبحانه لم يعاقبه بل أيّده بالمعجزات الدالة على نبوته ورسالته ، لأنه ﷺ بلغ الرسالة كما أمره الله تبارك وتعالى .

ولقد جاءت أحاديث تبين التزامه ﷺ فى كل أحواله ، فلم تؤثر الأحوال العارضة عليه ، فكلامه فى الغضب لا يؤثر الغضب فيه ، وكلامه فى المزاح لا يؤثر المزاح فيه ، ولم تتملكه منفعة أو مصلحة ، وإنما الغاية التى يسعى لها إرضاء الله تبارك وتعالى .

فعن عبد الله بن عمرو — رضى الله عنهما — قال: « كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه ، فنهتنى قريش ، وقالوا تكتب كل شىء تسمعه من رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ بشر يتكلم فى الرضى

---

(١) سورة يونس آية ١٥ .

(٢) سورة الحاقة الآيات من ٤٤ إلى ٤٧ .

والغضب ؟ قال : فأمسكت ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «اكتب فوالذى نفسى بيده ما خرج منه إلّا حق ، وأشار بيده إلى فيه »(١) .

وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال: « إنى لا أقول إلّا حقاً » قال بعض أصحابه : فإنك تداعبنا(٢) يا رسول الله ؟ فقال « إنى لا أقول إلّا حقاً »(٣) .

وعن عبد الله بن مسعود قال : نام رسول الله ﷺ على حصير ، فقام وقد أثّر فى جنبه ، فقلنا يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء(٤) ، فقال : « ما لى وللدنيا ، ما أنا فى الدنيا إلّا كراكب استظل تحت شجرة ، ثم راح وتركها »(٥) .

وهذه النصوص(٦) ــ من كتاب ربنا وسنة نبينا ــ تبين ما كان عليه ﷺ من التزام وحيطة فى تبليغ دين الله إلى عباد الله ، فلقد بلّغ كما أمره الله دون زيادة أو نقص ، بلّغ بكل صدق وأمانة ، بكل دقة وحذر ، لا يؤثر عليه غضب ولا مزاح ، ولامنفعة ولامصلحة ، فإنه إنما عاش لله تبارك وتعالى طالباً رضاه ، ملتزماً أن يكون عبداً شكوراً .

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك كتاب العلم باب الأمر بكتابة العلم ١ / ١٠٤ ، ١٠٥ من عدة طرق وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبى ، وأخرجه أبو داود فى العلم باب كتابة العلم ١٠ / ٧٩ ، والدارمى باب من رخص فى كتابة العلم ١ / ١٠٣ .

(٢) أى تمازحنا .

(٣) أخرجه الترمذى فى البر باب ما جاء فى المزاح ٦ / ١٢٦ تحفة الأحوذى رقم ١٠٥٨ وحسنه ، وهو عنده فى الشمائل باب مزاحه ﷺ ص ١٩٨ ، وأخرجه أحمد ٢ / ٣٤٠ ، ٣٦٠ واللفظ الذى هنا لأحمد .

(٤) الوطاء ــ بفتح الواو وكسرها ــ الفراش ، وأراد الصحابى فراشاً من صوف .

(٥) أخرجه الترمذى فى الزهد الباب الثالث بعد باب ما جاء فى أخذ المال بحقه ٧ / ٤٨ تحفة الأحوذى ، وصححه ، وأخرجه ابن ماجه فى الزهد باب مثل الدنيا جـ ٢ ص ١٣٧٦ رقم ٤١٠٩ وقوله ﷺ: « ما لى وللدنيا » معناه : ليس لى ألفة ومحبة للدنيا ، ولا للدنيا ألفة ومحبة معى حتى أجمع ما فيها وأحرص على متعتها .

(٦) والتى تفيد عصمته ﷺ فى التبليغ ، أما ما يفيد أن السنة كلها منْ وحى الله إليه ﷺ فسيأتى هذا فى الباب الأول إن شاء الله تعالى .

فضل تعلمها والتمسك بها وتعليمها :

● **السنة فيها البيان الصحيح للقرآن الكريم** : قال تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم** ﴾[1] إنها البيان الذى أوحاه الله تبارك وتعالى إلى نبيه ﷺ ، وكلّفه أن يبلغه الأمة ، إنها البيان الذى لولاه ما فهمت الأمة القرآن ، كما قال أبو حنيفة : لولا السنة ما فهم أحد مِنّا القرآن[2] . فمن أخذ السنة فقد أخذ بيان القرآن الذى جاء من الله تبارك وتعالى . ومن هنا كان أعلم من غيره بكتاب الله ، كما قال عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ــ رضى الله عنهما ــ إن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله[3] .

● **تعلم السنة النبوية سبيل الاستقامة على دين الله ، وسبيل الفوز برضا الله ومغفرته** : قال تعالى : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم** ﴾[4] فمن تعلم السنة أمكنه أن يتبع رسول الله ﷺ وأن يقتدى به ، أما من لم يتعلمها فإنه لا يمكنه الاتباع ، لأنه لا يعرف ، فكيف يتبع ؟ .

● **تعلم السنة النبوية حفظ من الزيغ والضلال** : فإن معرفة الحق تمنع صاحبها من الباطل ، وسنة رسول الله ﷺ هى الحق ، فمن عرفها أنكر المنكر وابتعد عنه ، وعرف الحق فتمسك به . وقد بيَّن ذلك ﷺ فى غير ما حديث ، أذكر منها :

* حديث ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إنى قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً ، كتاب الله وسنة نبيه »[5] .

* حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إنى قد تركت فيكم

---

(١) سورة النحل آية ٤٤ .

(٢) ذكره فى قواعد التحديث ص ٥٢ نقلاً عن الشعرانى فى ميزانه .

(٣) الإحكام لابن حزم ج ٢ ص ٢٥٠ واللالكائى فى السنة كذا فى مفتاح الجنة ص ٣٤ .

(٤) سورة آل عمران آية ٣١ .

(٥) أخرجه الحاكم فى العلم باب خطبته ﷺ فى حجة الوداع ١ / ٩٣ وأخرجه البيهقى فى السنن الكبرى فى آداب القاضى باب ما يقضى به القاضى ١٠ / ١١٤ .

شيئين لن تضلوا بعدهما ، كتاب الله وسنتى ، ولن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض »(١) .

* حديث أبى سعيد الخدرى قال : « خرج رسول الله ﷺ علينا فى مرضه الذى توفى فيه ، ونحن فى صلاة الغداة ، فذهب أبو بكر ليتأخر ، فأشار إليه مكانك . وصلى مع الناس . فلما انصرف حمد الله وأثنى عليه ثم قال : يأأيها الناس إنى قد تركت فيكم الثقلين ؛ كتاب الله وسنتى ، فاستنطقوا القرآن بسنتى(٢) ولا تعسفوه(٣) ، فإنه لن تعمى أبصاركم ، ولن تزل أقدامكم ، ولن تقصر أيديكم ما أخذتم بهما »(٤) .

* حديث العرباض بن سارية — رضى الله عنه — قال : « صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم(٥) ، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ؛ ذرفت(٦) منها العيون ، ووجلت(٧) منها القلوب ، فقال قائل : يا رسول الله كأن هذه موعظة مودِّع ، فماذا تعهد إلينا ؟ فقال : أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة وإن عبداً حبشياً(٨) ، فإنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ(٩) ، وإياكم ومحدثات الأمور(١٠) ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل

---

(١) أخرجه الحاكم شاهداً لحديث ابن عباس السابق عليه . وأخرجه كذلك البيهقى عقب حديث ابن عباس السابق . وأخرجه الخطيب فى الفقيه والمتفقه باب ذكر الخبر عن رسول الله ﷺ بأن سنته لا تفارق كتاب الله عز وجل ص ٩٤ .

(٢) أى فسِّروه بالسنة .

(٣) أى لا تفسروه على غير علم وهدى .

(٤) أخرجه الخطيب فى الفقيه مع حديث أبى هريرة السابق ، وأخرجه عياض فى الإلماع فى أول الكتاب باب وجوب طلب علم الحديث ص ٨ ، ٩ .

(٥) فى رواية الترمذى أنها صلاة الغداة أى الصبح .

(٦) دمعت .

(٧) خافت .

(٨) أى اسمعوا وأطيعوا الأمراء ، ولا تختلفوا ما داموا لم يخرجوا عن دائرتهم ؛ فلم يكلفوكم فوق ما تطيقون ، ولم يأمروا بمعصية الله تعالى .

(٩) النواجذ : الأضراس ، والمعنى : تمسكوا بالسنة والزموها جداً .

(١٠) أى واحذروا الأمور التى تخترع فى الدين ، ولا أصل لها فيه .

بدعة ضلالة »[1] .

وواضح من هذه الأحاديث أن من تعلم السنة وتمسك بها حفظه الله من الضلال ، وكان من أهل رضوان الله تعالى .

ولذا نلاحظ فى كلام الأئمة على أحاديث افتراق الأمة ، وأن فرقة ستظل على الحق إلى قيام الساعة ، نلاحظ أن الأئمة يرون أن هذه الطائفة التى ستظل على الحق إنما هم علماء الحديث ، وأهل سنته ﷺ .

ففى حديث : « ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلَّا فرقة واحدة »[2] يذكر عند الإمام أحمد بن حنبل هذا الحديث فيقول : إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدرى مَنْ هم[3] ! .

وفى حديث « لا تزال طائفة من أمتى منصورين ، لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة »[4] يُذكر هذا الحديث عند عبد الله بن المبارك فيقول : هم عندى أصحاب الحديث[5] وكذلك قال على بن المدينى[6] ، وأيضاً الإمام البخارى[7] ، وغير هؤلاء .

● **فى تعلم السنة وتعليمها عظيم الأجر** : فلقد دعا ﷺ لمن سمع حديثه فحفظه وبلغه الناس ، دعا له بنضارة الوجه ، أى أن الله تبارك وتعالى

---

(١) أخرجه أبو داود فى السنة باب فى لزوم السنة ١٢ / ٣٥٨ ــ ٣٦٠ عون المعبود ، وأخرجه الترمذى فى العلم باب الأخذ بالسنة واجتناب البدعة ٧ / ٤٣٨ ــ ٤٤٢ وقال : حسن صحيح ، وأخرجه الحاكم فى العلم باب عليكم بسنتى ١ / ٩٥ ــ ٩٧ وصححه ووافقه الذهبى ، وأخرجه ابن أبى عاصم فى السنة ١ / ٢٩ والبيهقى فى المعرفة ١ / ١٠٧ وأحمد ٤ / ١٢٦ ، ١٢٧ . والبغوى فى شرح السنة فى الإيمان باب الاعتصام بالكتاب والسنة ١ / ٢٠٥ رقم ١٠٢ .

(٢) أخرجه الخطيب فى شرف أصحاب الحديث ص ٢٤ عن أنس بن مالك ، وأخرجه ابن أبى عاصم فى السنة عن أنس من عدة طرق ، وعن جمع من الصحابة غيره . راجع السنة جـ ١ ص ٣٢ رقم ٦٤ وما قبلها وما بعدها .

(٣) شرف أصحاب الحديث ص ٢٥ .

(٤) أخرجه الخطيب فى شرف أصحاب الحديث جـ ١ ص ٢٥ رقم ٤٤ ــ ٤٧ .

(٥) شرف أصحاب الحديث ص ٢٦ .

(٦ ، ٧) شرف أصحاب الحديث ص ٢٧ .

يجعل وجهه حسناً جميلاً ، ومفهوم من هذا أنه دعاء بالسعادة والسرور ، فإن الوجه يتهلل جمالاً وحسناً حينما يكون القلب مسروراً ، فدعا ﷺ لمن تعلم سنته وعلّمها أن يسعده الله تبارك وتعالى وذلك فى قوله ﷺ: « نَضَّرَ الله امرءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه ، فرُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ورُبَّ حاملِ فقه ليس بفقيه »[1] وفى رواية « فرب مبلَّغ أوعى من سامع » .

وبيّن ﷺ أن من تعلم السنة ، فوجد سنة هجرها الناس فدعاهم إليها بقوله وعمله ، بيّن ﷺ أن هذا له عظيم الأجر ، حيث يثيبه الله تبارك وتعالى على علمه وعمله هذا ، ويثيبه على كل إنسان تعلم منه مهما بعدت الأجيال ، وتأخر الزمان ! يقول ﷺ : « من أحيا سنة من سنتى قد أميتت بعدى فإن له من الأجر مثل أجر من عمل بها من الناس ، لا ينقص من أجور الناس شيئاً . ومن ابتدع بدعة لا يرضاها الله ورسوله ، فإن عليه مثل إثم من عمل بها من الناس ، لا ينقص من آثام الناس شيئاً » (٢) .

وواضح من هذه النصوص التى سقتها فى فضل تعلم السنة والتمسك بها ـــ أن المسلم يتعلم السنة ويعمل بها ويعلمها الناس ، وهو بهذا يكون قد اكتسب علماً نافعاً ، أما أن يتعلم المسلم فقط ، ولا يعمل فهذا هو العلم الذى استعاذ منه رسول الله ﷺ ، فى دعائه « اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها »[3] فالمؤمن يتعلم ليعمل ، ويتعلم ليعلم الآخرين ، فيكون خيراً لنفسه وللأمة .

---

(١) أخرجه أبو داود فى العلم باب فضل نشر العلم ١٠ / ٩٤ وأخرجه الترمذى فى العلم باب فى الحث على تبليغ السماع ٧ / ٤١٥ ـــ ٤١٧ وقال : حسن ، أخرجاه عن زيد بن ثابت ، وأخرجه الترمذى أيضاً عن عبد الله بن مسعود فى نفس الباب وقال : حسن صحيح . وأخرجه أيضاً ابن حبان وابن ماجه والدارمى وأحمد . وأخرجه ابن حبان فى العلم باب ذكر البيان بأن هذا الفضل إنما يكون لمن أدى ما وصفنا كما سمعه سواء من غير تغيير ولا تبديل فيه جـ ١ ص ٢٣٨ بلفظ « رحم الله من سمع منى حديثاً فبلغه ... الحديث » وفى الباب بعده باللفظ الذى فى الأصل . وراجع البابين قبله .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة باب من أحيا سنة قد أميتت جـ ١ ص ٧٦ رقم ٢١٠ ، وأخرجه الترمذى فى العلم باب الأخذ بالسنة واجتناب البدعة ٧ / ٤٤٣ رقم ٢٨١٧ ، أخرجاه عن عمرو بن عوف المزنى ، وحكم الترمذى على الحديث بأنه حسن ، وحسّنه بالشواهد التى تعضده .

(٣) أخرجه مسلم فى الذكر باب التعوذ من شر ما عمل ٤ / ٢٠٨٨ رقم ٧٣ (٢٧٢٢) .

مأجوراً من الله سبحانه وتعالى أعظم الأجر ، كما قال ﷺ : « من دخل مسجدى هذا ليتعلم خيراً ، أو ليعلمه كان بمنزلة المجاهد فى سبيل الله ، ومن دخله لغير ذلك من أحاديث الناس كان بمنزلة من يرى ما يعجبه وهو شىء لغيره » (١) .

* * *

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير من حديث سهل بن سعد رقم ٥٩١١ وقد حسَّن السيوطى إسناده فى تنوير الحوالك ، وذكره فى مجمع الزوائد جـ ١ ص ١٢٣ وعزاه للطبرانى فى الكبير وفى إسناده يعقوب ابن حميد ين كاسب ، والراجح توثيقه .

مَنزِلَةُ السُّنَّةِ

- السنة وحى من الله إلى نبيه .
- نص القرآن على حجية السنة .
- السنة تبين القرآن .
- ثبـوت السنة .
- السنة النبوية والسنة الراشدة .

منزلة السنة النبوية

تظهر منزلة السنة من خلال عدة نقاط هي :

١ ــ أنها وحى أوحاه الله إلى نبيه ﷺ وأمره بتبليغه .

٢ ــ نص القرآن الكريم على وجوب اتباعها .

٣ ــ هى بيان للقرآن الكريم ، ولما كان القرآن واجب الاتباع فبيانه ــ السنة ــ واجب الاتباع كذلك .

وإليك تفصيل هذا الإجمال :

أولاً : السنة وحى من الله إلى نبيه :

السنة من وحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه ﷺ ، يدلنا على هذا :

أ ــ قول الله سبحانه وتعالى : **﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ﴾**(١) والحكمة هى السنة ، روى الشافعى ذلك عن أئمة ثقات ، إذ قال ــ رحمه الله ــ : فذكر الله الكتاب وهو القرآن ، وذكر الحكمة ، فسمعت مَنْ أَرْضَى من أهل العلم بالقرآن يقول : الحكمة سنة رسول الله ﷺ(٢) .

ب ــ وقوله سبحانه وتعالى : **﴿ لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة .. ﴾ الآية**(٣) .

---

(١) سورة النساء آية ١١٣ .

(٢) الرسالة ص ٤٥ فقرة ٢٥٢ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٦٤ .

جـ ــ وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ **هو الذى بعث فى الأمين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ..﴾ الآية**[1] .

ومن الآيات السابقة يتضح أن الله سبحانه أوحى إلى نبيه ﷺ القرآن الكريم والسنة النبوية ، وأنه سبحانه أمر نبيه ﷺ أن يبلغ الاثنين أمته .

وتفسير الحكمة بالسنة نقله الشافعى عن أئمة ارتضاهم فى تفسير القرآن الكريم ، وقد روى هذا التفسير ــ تفسير الحكمة بالسنة ــ عن الحسن[2] وقتادة[3] .

وقد جاءت أحاديث تبين أن السنة من الوحى ، من ذلك :

١ ــ روى عن مكحول أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « آتانى الله القرآن ومن الحكمة مثله »[4] .

٢ ــ وعن المقدام بن معدى كرب أنه ﷺ قال: «ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه ..... الحديث » [5].

٣ ــ وعن حسان بن عطية قال : كان جبريل ينزل على النبى ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن[6] .

٤ ــ وعن أبى أمامة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :«ليدخلن الجنة

---

(١) سورة الجمعة آية ٢ .

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى التفسير ــ كذا فى الدر جـ ١ ص ١٣٩ ــ والخطيب فى الفقيه جـ ١ ص ٨٨ .

(٣) أخرجه ابن جرير . وراجع الدر المنثور جـ ١ ص ١٣٩ .

(٤) أخرجه أبو داود فى مراسيله .

(٥) أخرجه أحمد جـ ٤ ص ١٣٠ ، ١٣١ وابن حبان فى صحيحه « الإحسان » فى المقدمة باب ذكر الخبر المصرح بأن سنن المصطفى ﷺ كلها عن الله لا من تلقاء نفسه جـ ١ ص ١٧٣ ولفظه « إنى أوتيت الكتاب وما يعدله » .

(٦) أخرجه الدارمى فى المقدمة باب السنة قاضية على كتاب الله ١ / ١١٧ رقم ٥٩٤ وأخرجه الخطيب فى الكفاية ص ٤٧ باب تخصيص السنن لعموم محكم القرآن وفى الباب قبله ص ٤٤ وذكره فى الفتح ١٣ / ٢٩١ وعزاه للبيهقى بسند صحيح ، وقال : حسان أحد التابعين من ثقات الشاميين ، وأخرجه الخطيب فى الفقيه ص ٩١ من طريقين ، وأخرج أيضاً مثل هذا عن الأوزاعى .

بشفاعة رجل ليس بنبى مثل الحيين ، أو مثل أحد الحيين ربيعة ومضر . فقال رجل : يا رسول الله أو ما ربيعة من مضر[1] ؟ فقال : إنما أقول ماأُقَوَّل » [2] .

٥ ــ وعن عبيد بن نضلة قال : قيل لرسول الله ﷺ ــ فى عام سَنَةٍ[3]: سعِّر لنا يا رسول الله . قال : لا يسألنى الله عن سُنَّةٍ أحدثتها فيكم لم يأمرنى بها ، ولكن اسألوا الله من فضله[4] .

ومن الحديث الأول والثانى يتضح أن السنة قد أوتيها ﷺ من ربه سبحانه وتعالى .

ومن الحديث الثالث والرابع يتضح أن السنة توحى إليه ﷺ من ربه سبحانه وتعالى ، وأنه لا يقولها من خاطره ، وإنما يؤمر بقولها .

ومن الحديث الخامس يتضح أنه ﷺ لا يسُنّ ما لم يؤمر به .

والرأى من رسول الله ﷺ ليس ظناً ولا تكلفاً ، وإنما هو ما يطلعه الله عليه . وهو فى هذا يختلف عن الأمة ، وهذا معنى قول الله سبحانه: ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله** .. ﴾الآية[5] .

ولذا روى عن ابن عباس قال : إياكم والرأى ، فإن الله قال لنبيه ﷺ ﴿ **لتحكم بين الناس بما أراك الله** ﴾ ولم يقل بما رأيت [6] .

وروى عن عمر أنه قال على المنبر : يأيها الناس إن الرأى إنما كان من رسول الله ﷺ مصيباً ، لأن الله تعالى كان يريه ، وإنما هو منا الظن والتكلف [7] .

(١) فى رواية أحمد جـ ٥ ص ٢٦٧ « إنما ربيعة من مضر » .

(٢) أخرجه أحمد فى المسند ٥ / ٢٥٧ ، ١٦١ ، ٢٦٧ وأخرجه كذلك الطبرانى والضياء .

(٣) أى عام جدب .

(٤) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير بإسناد رجاله ثقات ، سوى بكر بن سهل الدمياطى فإنه ضعفه النسائى ووثقه غيره ، راجع مجمع الزوائد ٤ / ١٠٠ والجامع الأزهر جـ ٣ ل ١٢٦ أ . وذكره فى الجامع الكبير جـ ١ ص ٩٣١ وعزاه للطبرانى فى الكبير والبغوى . وذكره فى مفتاح الجنة ص ٩ وعزاه للبيهقى فى المدخل ، ولم أجده فى القدر المطبوع من المدخل .

(٥) سورة النساء الآية ١٠٥ .

(٦) ذكره فى الدر ٢ / ٢١٩ وعزاه لابن المنذر وابن أبى حاتم ، وراجع أعلام الموقعين ٥٤/١ .

(٧) أخرجه البيهقى فى السنن ١١٧/١٠

والتكلف(١) .

والوحى إليه ﷺ قسمان :

أ ــ إعلامى : وفيه يعلمه الله سبحانه وتعالى الشىء بكيفية من كيفيات هذا النوع وستأتى .

ب ــ إقرارى : وفيه يجتهد ﷺ فى المسألة ، ويراقبه الوحى ، فإن أصاب أقره وإلّا نبَّهَه .

كيفيات الوحى الإعلامى :

وللوحى الإعلامى كيفيات متعددة هى :

الكيفية الأولى : أن يُوحَى إليه بواسطة الإلهام ، فيُلقى الله فى قلبه المعانى ، مع العلم اليقينى أن هذا من عند الله سبحانه وتعالى ، وهذه الكيفية هى المرادة من قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلّا وحياً** ﴾(٢) إذ يقابلها إجمال بقية الكيفيات فى قوله سبحانه: ﴿ **أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولًا فيوحى بإذنه ما يشاء** ﴾(٣)وبهذا قال أكثر المفسرين .

الكيفية الثانية : أن يكلمه الله سبحانه وتعالى من وراء حجاب ، فلا يرى ﷺ ربه ، وإنما يسمع كلامه سبحانه وتعالى ، مع اليقين بأنه يكلمه الله تعالى ، وهذا مفهوم من قول الله سبحانه: ﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلّا وحياً أو من وراء حجاب** ﴾ فقوله سبحانه: ﴿ **أو من وراء حجاب** ﴾ هى الكيفية المذكورة هنا .

---

(١) أخرجه أبو داود فى الأقضية باب فى قضاء القاضى إذا أخطأ جـ ٩ ص ٥٠٤ عون المعبود ، وأخرجه البيهقى فى السنن ١١٧/١٠ ، وفى المدخل ص ١٨٩ ، وأخرجه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم ١٠٤٠/٢ الطبعة المحققة من رواية الزهرى وغيره عن عمر ، وصححه محققه - جامع بيان العلم .

(٢ ، ٣) سورة الشورى الآية ٥١ .

وتكليم الله نبيه ﷺ إما فى اليقظة ، كما فى ليلة الإسراء حين فرض سبحانه الصلاة ، وإما فى النوم كما فى حديث: « رأيت ربى فى أحسن صورة ، قال : فيم يختصم الملأ الأعلى ..؟ الحديث[1] وروايات الحديث فيها ما هو أصرح من ذلك فى أنه ﷺ رأى ربه مناماً .

الكيفية الثالثة : الرؤيا الصادقة : فيرى ﷺ الشيء فى الرؤيا فهذا من الوحى ، إذ رؤيا الأنبياء وحى ، وهى حق كما جاء ذلك فى حديث عائشة : « أول ما بُدِئَ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصبح .. الحديث »[2] وواضح من قولها — رضى الله عنها — « أول ما بدئ به .. من الوحى الرؤيا الصالحة » أن الرؤيا الصالحة كيفية من كيفيات الوحى .. وقد جاء ذلك مصرحاً به فى أحاديث منها :

— ما أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله ﷺ « رؤيا الأنبياء وحى »[3] .

— وما أخرجه البخارى عن عبيد بن عمير بن قتادة[4] قال « إن رؤيا الأنبياء وحى ثم قرأ: ﴿ **إنى أرى فى المنام أنى أذبحك** ﴾ [5].

— وما أخرجه أحمد والطبرانى فى الكبير عن معاذ بن جبل قال : « ما رأى رسول الله ﷺ فى نومه ، أو يقظته فهو حق »[6] .

---

(١) أخرجه الدارمى فى الرؤيا ٥١/٢ رقم ٢١٥٥ مرسلاً أو معضلا ، وأخرجه أحمد عن ابن عباس ومعاذ وبعض الصحابة راجع السند ٣٦٨/١ ، ٦٦/٤ ، ٥/ ٢٤٣ ، ٣٧٨ وقال فى الجامع الأزهر ١٣/١ أ رجاله ثقات .

(٢) أخرجه البخارى فى بدء الوحى ١ / ٢٢ حديث رقم ٣ .

(٣) ذكره فى الدر ٥ / ٢٨٠ .

(٤) عبيد : تابعى كبير ، وأبوه : عمير بن قتادة صحابى .

(٥) أخرجه البخارى فى الوضوء باب التخفيف فى الوضوء ١ / ٢٣٨ رقم ١٣٨ وفى الأذان باب وضوء الصبيان ٢ / ٣٤٤ رقم ٨٥٩ والآية رقم ١٠٢ من سورة الصافات وفى الفتح ١ / ٢٣٩ ذكر أن مسلماً أخرج هذا الحديث مرفوعاً ، ولم أقف عليه عند مسلم .

(٦) أخرجه فى المسند ٢٤٥/٥ وراجع الخصائص ٣٣٨/٣ .

ــ وما أخرجه الحاكم والطبرانى ــ أيضاً ــ عن ابن عباس : « رؤيا الأنبياء وحى »[1] .

فرؤياه المنامية ﷺ حق ، لا يعتريها تلبيس أو تخييل ، وكذا جميع الأنبياء ، تجد هذا واضحاً فى قصة ذبح إبراهيم ولده ، وكيف أن ذلك كان بناء على رؤيا منامية ، وتجده أيضاً فى قصة يوسف ، وأن رؤياه الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين ، قد تحققت بعد سنوات .

قال ابن المرابط فى تفسير الرؤيا الصالحة هى التى ليست ضغثاً ، ولا من تلبيس الشيطان ، ولا فيها ضرب مثل مشكل[2] أ هـ وقوله : ولا فيها ضرب مثل مشكل . أى لا يتوقف على تأويله .

الكيفية الرابعة : أن يوحى إليه بواسطة الملك ، وقد تمثل له الملك رجلاً ، فيكلمه بما أُمر به من الوحى .

فأحياناً كان جبريل عليه السلام يأتى رسول الله ﷺ على صورة دحية الكلبى ، فيبلغه عن الله ما أمره سبحانه وتعالى به . وهذه الكيفية نادرة ، ومنها الحديث الجامع الذى أخرجه مسلم عن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثرُ السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه . قال : يا محمد أخبرنى عن الإسلام ؟ فقال رسول الله ﷺ : أن تشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا .. الحديث[3] وفى نهايته قال ﷺ : يا عمر أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنَه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم .

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك فى كتاب التفسير تفسير سورة الصافات جـ ٢ ص ٤٣١ وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى . أما رواية الطبرانى فرجالها ثقات سوى شيخ الطبرانى عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبى مريم فهو ضعيف كذا فى الجامع الأزهر ج ١ ل ٢٣٧ . قلت : لكنه توبع .

(٢) الفتح ٨ / ٧١٧ .

(٣) أخرجه مسلم فى أول صحيحه فى كتاب الإيمان الحديث الأول ١ / ١٢٨ .

ومما يثبت هذه الكيفية أيضاً حديث الحارث بن هشام ، فلقد سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله ﷺ : أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشدّه علىّ فَيَفْصَمُ[1] عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعى ما يقول[2] .

وعن ابن عمر قال : « وكان جبريل عليه السلام يأتى النبى ﷺ فى صورة دحية »[3].

ودحية هذا صحابى جليل ، شهد المشاهد مع رسول الله ﷺ خلا بدر ، وكان جميل الهيئة .

وعن أنس أن النبى ﷺ قال : « كان جبريل يأتينى على صورة دحية الكلبى » قال أنس : ودحية كان رجلاً جسيماً أبيض[4] .

وهذه الكيفية أهون كيفيات نزول الملك عليه ﷺ ، وقد جاء فى رواية هذا الحديث عند أبى عوانة « وهو أهونه على » والذى يظهر لى أنها أهون كيفيات مجىء الملك ، ولا أتصور أن تكون أخف من الرؤيا والكيفيات السابقة .

الكيفية الخامسة : أن يوحى إليه بواسطة الملك ولا يرى الملك ، وإنما يعلم بمجىء وحى بظهور علامات تدل على ذلك ، من دوىٍّ كدوى النحل ، أو صلصلة كصلصلة الجرس ، فيكلمه الملك بالوحى ، وهذه الكيفية يدل لها الحديث السابق — حديث الحارث بن هشام — وفيه قال عنها ﷺ: « وهو أشده علىّ » فهى أثقل الكيفيات ، حتى قالت عائشة عنها: « ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقاً » .

---

(١) بفتح الياء وسكون الفاء وكسر الصاد المهملة من الثلاثى ، أو بضم الياء وسكون الفاء وكسر الصاد من الرباعى ، روى من أفصم أو فصم ، ومعناها أقلع . وروى بالبناء للمجهول بضم أوله — الياء — وفتح الصاد من فصم ، وهى التى فى رواية البخارى التى معنا ، والمعنى ينجلى ويفارقنى .

(٢) أخرجه البخارى فى بدء الوحى الحديث الثانى جـ ١ ص ١٨ .

(٣) أخرجه أحمد ٢ / ١٠٧ ، وذكر الحافظ فى الإصابة ٢ / ٣٨٥ أن النسائى أخرجه أيضاً بإسناد صحيح . وأخرجه ابن سعد فى ترجمة دحية جـ ٤ ص ٢٥٠ وإسناده إسناد الإمام أحمد ، التقى معه فى شيخه عفان بن مسلم . وإسناد أحمد وابن سعد صحيح .

(٤) أخرجه الطبرانى فى الأوسط وفيه عفير بن معدان وهو ضعيف ، كذا فى مجمع الزوائد ٩ / ٣٧٨ . قلت : تقدم له شاهد عن ابن عمر فيجعله فى دائرة الحسن ، ويخرجه من دائرة الضعيف .

ويدل لها أيضاً حديث عمر«كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحى يُسْمع عند وجهه دويٌّ كدوى النحل ... الحديث»[1] .

والحكمة فيما يعانيه ﷺ عند نزول الوحى متعددة ، منها ما يترتب على المشقة من زيادة الأجر ، ورفعة الدرجة ، ومنها أن يتفرغ ﷺ للوحى ، وتتفرغ جوارحه لما سيلقى عليه .

ومن هذه الكيفية حديث يعلى بن أمية أن رجلاً أتى النبى ﷺ وهو بالجعرانة ، وعليه جبة وعليه أثر الخلوق ، وفيه أن يعلى رآه ﷺ حال نزول الوحى محمّر الوجه يغط[2] كما يغط البكر ... الحديث[3] .

الكيفية السادسة : أن يوحى إليه بواسطة الملك ، دون أن يرى الملك ، ودون أن يكلمه ، وإنما يلقى الملك فى قلبه ﷺ ما أمر به من الوحى .

ومن هذه الكيفية حديث:« إن روح القدس[4] نفث فى روعى[5] أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب »[6] .

الكيفية السابعة : أن يوحى إليه بواسطة الملك ، وقد ظهر الملك على صورته التى خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح ، كل جناح قد سدّ الأفق .

فعن ابن مسعود فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى** ﴾ قال — أى ابن مسعود — إنه أى رسول الله ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح[7]وفى رواية أخرى «له ستمائة جناح يتناثر منها تهاويل

---

(١) أخرجه أحمد ١ / ٣٤ .

(٢) ينفخ ، والغطيط : صوت النفس المتردد من النائم أو المغمى . فتح ٣ / ٣٩٤ .

(٣) أخرجه البخارى فى الحج باب غسل الخلوق ثلاث مرات ٣ / ٣٩٣ ، وفى العمرة باب يفعل بالحج ٣ / ٦١٤ وفى غير هذين .

(٤) جبريل .

(٥) « روعى » بضم الراء : قلبى وعقلى . راجع النهاية لابن الأثير ، ومختار الصحاح .

(٦) أخرجه الحاكم فى البيوع باب إن الله لا يُنال فضله بمعصية جـ ٢ ص ٤ عن ابن مسعود أخرجه شاهداً لحديث جابر الذى ساقه أصلاً ثم شاهداً لهذا الأصل . وأخرجه الشافعى فى الرسالة ص ٥٣ فقرة رقم ٣٠٦ عن المطلب . وأخرجه أبو نعيم فى الحلية جـ ١٠ ص ٢٦ ، ٢٧ عن أبى أمامة . وأخرجه الخطيب فى الفقيه ص ٩٢ ، ٩٣ من طريق الشافعى .

(٧) أخرجه البخارى فى التفسير باب فكان قاب قوسين أو أدنى ٨ / ٦١٠ ، ٦١١ وفى البابين بعده . وأخرجه كذلك مسلم والترمذى وغيرهم .

الدر والياقوت » (١) وفى رواية « رأى جبريل فى حلة من رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض »(٢) وفى رواية فى تفسير: ﴿ **لقد رأى من آيات ربه الكبرى** ﴾ قال ـــ أى ابن مسعود ـــ: رأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق(٣) .

وفى رواية عنه ـــ أى ابن مسعود ـــ « إن رسول الله ﷺ لم ير جبريل فى صورته إلَّا مرتين ، أما واحدة فإنه سأله أن يراه فى صورته ، فأراهُ صورته فسدّ الأفق ، وأما الثانية فإنه كان معه حيث صعد ، فذلك قوله: ﴿ **وَهو بالأفق الأعلى** ﴾ ﴿ **لقد رأى من آيات ربه الكبرى** ﴾ قال : خَلْق جبريل(٤) .

ومن هذه الروايات يتضح أنه ﷺ رأى جبريل على صورته التى خلق عليها ، له ستمائة جناح ، عليه حلة قد سد الأفق ، يتناثر من ريشه تهاويل الدر والياقوت ، أى أن ريشه فيه من الجمال ما فيه ، فهو مُزَيّن بالعديد من الألوان ، من صفرة وحمرة وخضرة وبياض(٥) .

ومن هذه الكيفية رؤيته ﷺ جبريل فى ليلة المعراج على صورته التى خلق عليها ، وفى هذه الليلة أبلغه جبريل عن الله ما أبلغه ، وأجابه ورافقه .

هذه هى كَيفيات الوحى الإعلامى ، منها ما هو بدون ملك ، ومنها ما فيه الملك . ومنها ما يكون فى اليقظة ، ومنها ما يكون فى النوم ، والصفة العامة فى كل هذه الكيفيات أنه ﷺ يَحْدُث عنده علم يقينى بأن هذا من الله عز وجل .

الوحى الإقرارى :

أما الوحى الإقرارى فهو أن يجتهد ﷺ(٦) فى الأمر فيسلك فيه مسلكاً ما،

---

(١) عند النسائى وابن مردويه ، كذا فى الفتح ٨ / ٦١١ .

(٢) رواية أحمد والترمذى وصححه .

(٣) رواية البخارى فى التفسير باب « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » ٨ / ٦١١ .

(٤) أخرجه أحمد والطبرى والطبرانى .

(٥) راجع تاج العروس ٨ / ١٧٥ ، والنهاية فى غريب الحديث ٥ / ٢٨٣ .

(٦) الراجح ـــ بل الصحيح ـــ أنه يجوز للأنبياء الاجتهاد، وبهذا قال مالك والشافعى وأحمد وأبو يوسف وعبد الجبار وهو مذهب الجمهور فيجوز للنبى أن يجتهد إذا انقطع طمعه عن الوحى ، ولا يقر فى اجتهاده هذا على باطل . وراجع المحصول ٢ / ٣ / ٩ « المجتهد » ، والإحكام للآمدى ٤ / ١٦٥ . ونهاية السؤل ٣ / ١٧٢ ، والتقرير والتحبير ٢ / ٧٩ ، والمغنى للخبازى ص ٢٦٤ ، راجع هذه الكتب وغيرها من كتب الأصول ففيها خير كثير ، ذكرت هنا خلاصته .

فإن كان صواباً أقره الوحى ، وإن كان غير صواب نبهه الوحى ، وحينئذ يكون إعلامياً ، فالوحى التقريرى هو ما أقر الله سبحانه وتعالى نبيه فيه على صواب فعله من تلقاء نفسه .

فما صدر منه ﷺ من قول أو فعل أو إقرار دائر بين حالين :

أ ــ حال الإيحاء ، بأن يوحى الله إليه بالأمر ابتداء فيمتثل ، أو يوحى إليه انتهاء ليعرفه سبحانه ما يتفق وشريعته ، وهذا قليل نادر ، ومثاله ما حدث فى أسرى بدر .

وهذه الحال الكثير الغالب ، فكثيراً ما ابتدأه الوحى ، وربما سئل عن الشىء فسكت حتى جاءه الوحى ، كما فى حديث الذى أحرم وعليه جبة وخلق[1] وكما فى حديث المتلاعنين[2] ، وسئل عن الروح فسكت حتى نزلت الآية[3] ، وسئل عن توزيع التركة فسكت حتى نزلت آية الميراث[4] ولما أخبر النساء عن فضل من مات له ثلاثة من الولد سألته إحداهن عمن مات له اثنان ، فسكت فأعادتها مرتين ، فلما أوحى إليه قال لها : واثنين واثنين واثنين[5] .

ب ــ حال عدم الإيحاء وذلك بتركه ﷺ وشأنه فيتصرف صواباً ، فيقره الله سبحانه وتعالى على ذلك .

وهذه الحال من مستلزمات سلامة الدين ، فما كان الله عز وجل ليترك

---

(١) تقدمت الإشارة إليه وتخريجه .

(٢) أخرجه البخارى فى الاعتصام باب ما يكره من التعمق والتنازع ١٣ / ٢٧٦ حديث رقم ٧٣٠٤ .

(٣) أخرجه البخارى فى العلم باب قول الله تعالى: ﴿ وما أوتيتم من العلم إلّا قليلا ﴾ ١ / ٢٢٣ وفى غير هذا الموضع .

(٤) أخرجه البخارى فى الاعتصام باب ما كان النبى ﷺ يسأل مما لم ينزل عليه الوحى ١٣ / ٢٩٠ رقم الحديث ٧٣٠٩ وهو عنده فى غير هذا الموضع .

(٥) راجع حديث رقم ٧٣١٠ فى البخارى فتح البارى جـ ١٣ ص ٢٩٢ كتاب الاعتصام باب تعليم النبى ﷺ أمته من الرجال والنساء مما علمه الله . وراجع الفتح ٣ / ١١٩ ــ ١٢١ .

خطأً يصدر من رسوله المبلِّغ عنه ، مما يترتب عليه وقوع الأمة فيه اتباعاً . وإذا كانت الحكمة من إرسال الرسل أن لا تكون للناس على الله حجة ﴿ **رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** ﴾(١) فإن ذلك يتم بعصمة المُرْسَل من الوقوع فى أى خطأ ، وإلَّا نبهه ، كما فى حديث أبى قتادة أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ أرأيت إن قتلت فى سبيل الله تكفر عنى خطاياى ؟ فقال له رسول الله ﷺ : نعم ، إن قتلت فى سبيل الله ، وأنت صابر محتسب ، مقبل غير مدبر ثم قال رسول الله ﷺ كيف قلت ؟ قال : أرأيت إن قتلتُ فى سبيل الله أتكفَّر عنى خطاياى ؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم ، وأنت صابر محتسب ، مقبل غير مدبر إلَّا الدَّيْن فإن جبريل ـــ عليه السلام ـــ قال لى ذلك (٢) .

ولقد كان معلوماً لدى الصحابة أن إقرار الرسول ﷺ إقرار من الله سبحانه وتعالى ، وأنه لو حدث أمر يخالف الإسلام لجاء الوحى فأنكر عليهم ذلك ، لقد كانوا يعرفون أن الوحى قريب وكثير ، فلن يترك أمراً مخالفاً يمر ، فما أقره رسول الله ﷺ دون وحى فإنما هو من الإسلام وإلَّا جاء الوحى .

يشهد لذلك ما روى عن جابر من قوله:« كنا نعزل على عهد رسول الله ﷺ والقرآن ينزل » قال سفيان ـــ أحد رجال إسناد هذا الحديث ـــ موضحاً كلام جابر : لو كان شيئاً يُنْهَى عنه لنهانا عنه القرآن(٣) . ويظهر لى من كلام جابر هذا أن جابراً استدل على شرعية العزل بتقرير الله سبحانه وتعالى.وعليه فجابر يرى أن الوحى لا يقتصر على مراقبة رسول الله ﷺ ، وإنما يراقب الأمة كلها . فأيما فعل فعلوه مخالفاً الإسلام نبه الوحى عليه ، وأيما فعل فعلوه زمن الوحى وأقرهم عليه الوحى فهو من الإسلام .

---

(١) سورة النساء آية ١٦٥ .

(٢) أخرجه مسلم فى الإمارة باب من قتل فى سبيل الله كفرت عنه خطاياه إلَّا الدَّيْن ٤ / ٥٤٨ رقم ١١٨، ومالك فى الجهاد باب الشهداء فى سبيل الله ٢ / ٤٦١ رقم ٣١ .

(٣) أخرجه مسلم فى النكاح باب حكم العزل ٣ / ٦١٧ والبخارى فى النكاح باب العزل ٩ / ٣٠٥ حديث رقم ٥٢٠٧ ـــ ٥٢٠٩ .

والذى يظهر لى أن هذا — إقرار الوحى الأمة — هو الذى يفيده حديث جابر الذى معنا وتفيده النصوص[١] ، ففى رواية لحديث جابر[٢] «كنا نعزل على عهد رسول الله ﷺ والقرآن ينزل » ففيه تصريح بنزول الوحى مع إضافته لعهده ﷺ ، مما يشعر .أنه يلحظ قضية إقرار الوحى الأمة على ما تفعل أو ينكر .

وهذا هو الذى يفيده أيضاً حديث ابن عمر « كنا نتقى الكلام والانبساط إلى نسائنا هيبة أن ينزل فينا شيء على عهد النبى ﷺ ، فلما مات النبى ﷺ تكلمنا وانبسطنا[٣] . ومنه حديث عمر حينما سأل رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يجبه فقال — أى عمر — ثكلتك أمك يا عمر ثم قال : وخشيت أن ينزل فىّ قرآن[٤] .

ومنه حديث سلمة بن صخر البياضى إذ أتى زوجته فى رمضان فقال لقومه امشوا معى إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا : لا والله لا نمشى معك ، ما نأمن أن ينزل فيك القرآن ، أو أن يكون فيك من رسول الله ﷺ مقالة يلزمنا عارها ... الحديث[٥] .

ومن إنكار الوحى عليهم حديث زيد بن خالد الجهنى قال : صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية فى إثر سماء كانت بالليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : قال أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى ، كافر بالكواكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا

---

(١) وإن كان ابن دقيق العيد استغربه فقال : استدلال جابر بالتقرير من الله غريب فتح ٩ / ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

(٢) عند البخارى فى التخريج السابق رواية رقم ٥٢٠٩ .

(٣) أخرجه البخارى فى النكاح باب الوصاية بالنساء ٩ / ٢٥٣ حديث رقم ٥١٨٧ . وأخرجه ابن ماجه فى الجنائز باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ جـ ١ ص ٥٢٣ حديث رقم ١٦٣٢ . وأخرجه أحمد ٢ / ٦٢ . وفى رواية ابن ماجه مخافة أن ينزل فينا القرآن ، وكذا عند أحمد .

(٤) أخرجه البخارى فى المغازى باب غزوة الحديبية ٧ / ٤٥٢ رقم ٤١٧٧ .

(٥) أخرجه الدارمى فى الطلاق باب فى الظهار ٢ / ٨٦ حديث رقم ٢٢٧٨ .

وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب[1] وهكذا يتضح أن الوحى كان يراقب تصرفاته ﷺ ويراقب الأمة أيضاً .

فأى خطأ ارتكبوه يظنونه صواباً نبههم القرآن عليه ، وربما فعلوا الشيء فسألوه ﷺ . وربما فعلوه ظانّين صوابه فلم يسألوا فجاء الوحى فَنَبَّهَ .

ومجمل القول أن السنة وحى من الله سبحانه وتعالى إلى نبيه ﷺ ، وهذا الوحى منه إعلامى وله كيفيات متعددة ، ومنه إقرارى يُقر الله نبيه على تصرف تصرفه صواباً ، ولقد كان الوحي يراقب تصرفات الأمة أيضاً ، فينبه على ما ارتكبوه من أخطاء يظنونها صواباً ، أو لم يعرفوا مخالفتها ، أما ما عرفت مخالفته ووقع فيه فاعله مدركاً تقصيره ، وعالماً حكمه ، فهذا ليس داخلاً فى دائرة الوحى ، وهذا من رحمة الله سبحانه وتعالى بالأمة .

قال الشاطبى ــ رحمه الله تعالى ــ كل ما أخبر به رسول الله ﷺ من خبر فهو كما أخبر ، وهو حق وصدق معتمد عليه فيما أخبر به وعنه سواء علينا انبنى عليه فى التكليف حكم أم لا ، كما أنه إذا شرع حكماً ، أو أقر أو نهى فهو كما قال عليه الصلاة والسلام ، لا يفرق فى ذلك بين ما أخبر به الملك عن الله ، وبين ما نفث فى روعه وألقى فى نفسه ، أو رآه رؤية كشف واطلاع على مغيب على وجه خارق للعادة ، أو كيف ما كان ، فذلك معتبر يحتج به ، ويبنى عليه فى الاعتقادات والأعمال جميعاً ، لأنه ﷺ مؤيد بالعصمة وما ينطق عن الهوى[2] . ا هـ .

ثانياً : نص القرآن الكريم على حجية السنة :

المتأمل لآيات القرآن الكريم يجد أن الله سبحانه وتعالى يأمرنا باتباع رسوله ﷺ ، اتباعاً لا تشوبه معصية ، ولا تدخله مخالفة ، اتباع من يأتمر وينتهى ، اتباع المطيع المسلّم . فيقول سبحانه : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله**

---

(١) أخرجه مسلم فى الإيمان باب كفر من قال مطرنا بالنوء ١ / ٢٥٨ رقم ١٠٩ . والبخارى فى الأذان باب يستقبل الإمام الناس إذا سلّم ٢ / ٣٣٣ رقم ٨٤٦ .

(٢) الموافقات ٤ / ٥٢ ط محيى الدين .

فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ﴾[١] .

ويقول سبحانه : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أنْ يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينا ﴾**[٢] .

ويقول سبحانه : ﴿ **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾**[٣] .

ويقول سبحانه : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾**[٤] .

ويقول سبحانه : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾**[٥] .

وبيّن الله سبحانه وتعالى قدر طاعة رسوله ﷺ وذلك :

١ ــ قرن سبحانه وتعالى طاعة رسوله بطاعته سبحانه فقال : ﴿ **يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم .... ﴾** الآية[٦] .

قال ابن القيم ــ تعليقاً على هذه الآية ــ فأمر تعالى بطاعته وطاعة رسوله ، وأعاد الفعل إعلاماً بأن طاعة الرسول تجب استقلالاً من غير عرض ما أمر به على الكتاب ، بل إذا أمر وجبت طاعتُه مطلقاً ، سواء كان ما أمر به فى الكتاب أو لم يكن فيه ، فإنه أوتى الكتاب ومثله معه ، ولم يأمر بطاعة أولى الأمر استقلالاً ، بل حذف الفعل ، وجعل طاعتهم فى ضمن طاعة الرسول ، إيذاناً بأنهم إنما يطاعون تبعاً لطاعة الرسول ، فمن أمر منهم بطاعة الرسول

---

(١) سورة آل عمران آية ٣١ .
(٢) سورة الأحزاب آية ٣٦ .
(٣) سورة النور آية ٦٣ .
(٤) سورة الحشر آية ٧ .
(٥) سورة النساء آية ٦٥ .
(٦) سورة النساء آية ٥٩ .

وجبت طاعته ، ومن أمر بخلاف ما جاء به الرسول فلا سمع ولا طاعة(١) .

٢ ــ جعل سبحانه وتعالى طاعة رسوله طاعة له سبحانه وتعالى فقال: ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾(٢) . فطاعة الأمة رسول الله ﷺ طاعة لله سبحانه وتعالى ، لأنه هو الذى اصطفاه واجتباه ، وعصمه مما يخالف أمره جل علاه .

٣ ــ بيّن سبحانه أن شأن المؤمنين السمع والطاعة له ﷺ ، وذلك فى قوله سبحانه: ﴿ **إنما كان قول المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون** ﴾ (٣) فشأن المؤمنين طاعة رسول الله ، المبلغ عن الله ، والهادى إلى صراط الله ، الذى قال الله فيه: ﴿ **وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم،صراط الله** .. ﴾ (٤) فهو ﷺ يهدى إلى صراط الله ، ومعصوم من غير ذلك .

قال الشافعي ــ رحمه الله ــ:وضع اللهُ رسوله من دينه وفرضه وكتابه الموضع الذى أبان جل ثناؤه أنه جعله علماً لدينه ، بما افترض من طاعته ، وحرم من معصيته ، وأبان من فضيلته بما قرن من الإيمان برسوله مع الإيمان به(٥) ا هـ .

ثالثاً : السنة تبين القرآن :

ومما يبين منزلة السنة فى الإسلام ، أن السنة تبين القرآن الكريم ، بياناً وكل الله سبحانه إلى رسوله ﷺ القيام به ، وأمر الأمة أن تأخذ هذا البيان عن رسوله ﷺ .

فإذا راعينا ــ كما سبق ــ أن هذا البيان وحى ، وراعينا أن الذى يقوم به

---

(١) أعلام الموقعين ١ / ٥٠ .
(٢) سورة النساء آية ٨٠ .
(٣) سورة النور الآية ٥١ .
(٤) سورة الشورى الآيتان الأخيرتان ٥٢ ، ٥٣ .
(٥) الرسالة ص ٤٣ فقرة ٢٣٦ .

إنما هو الرسول المعصوم ﷺ ، وراعينا أن الأمة مكلفة بالامتثال لما تأخذه عنه ﷺ ، إذا راعينا هذه الجوانب اتضح لنا أن السنة خير بيان للقرآن ، والأمة مأمورة بالالتزام بهذا البيان .

وإليك الدليل على أنها — السنة — تبين القرآن وصوراً من بيانها له .

قال الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل إليهم ولعلَّهم يتفكرون** ﴾(١) فبين سبحانه أنه أنزل إلى رسوله الذكر أى القرآن ليبينه للناس ، فبيان كتاب الله يؤخذ عن رسول الله ﷺ الذى جعل الله له هذا البيان .

وأيضاً ففيه ﷺ من الخصائص ما يؤهله لهذا الأمر ، من ذلك :

١ — هو ﷺ الذى يأتيه الوحى من مُنَزِّل الكتاب سبحانه وتعالى ، ومن كان كذلك كان الحقيق ببيان هذا الكتاب .

ومن هنا كان الصحابة إذا أشكل عليهم شيء من القرآن سألوه ﷺ ، لعلمهم بأنه الذى يوحى إليه ، فهو الحقيق ببيانه .

٢ — هو ﷺ أدرى الناس بكتاب الله سبحانه وتعالى ، فهو المختار لتحمله وتبليغه ، ولا يكون ذلك إلَّا لمن أُهِّل له . وكم كان البيان من القرآن للقرآن ، فمثلًا لما نزل قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون** ﴾ (٢) فَهِمَ الصحابة الظلم على إطلاقه ، ومن هنا استثقلوا ، فسألوه ﷺ ، فبين لهم أن المراد بالظلم فى الآية إنما هو الشرك كما هو مبين فى آية أخرى .

أخرج البخارى عن عبد الله — رضى الله عنه — قال : لما نزلت : ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم** ﴾ شق ذلك على المسلمين فقالوا : يا رسول الله أينا لا يظلم نفسه ؟ قال : ليس ذلك ، إنما هو الشرك ، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿ **يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم**

---

(١) سورة النحل الآية ٤٤ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٨٢ .

عظيم ﴾ (١) .

وكم كان البيان من فهم يَدِقُّ على غيره ﷺ ، من ذلك أنه حدثهم عن الخيل وأنها لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر ، فسألوه عن الحُمُر أتكون أجرا ، وسترا ، ووزرا ؟ فأجابهم ﷺ بما فهم من آية لا يتطرق إلى الفهم أنها تفيد شيئا فى الحمر ، إذ قال لهم:« ما أنزل على فيها إلا هذه الآية الجامعة الفاذة:﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾(٢) .

وخير ما يوضح هذا كلام ابن مسعود إذ قال : ما من شيء إلا بُيِّن لنا فى القرآن ، ولكن فهمنا يقصر عن إدراكه ، فلذلك قال تعالى:﴿ **لتبين للناس ما نُزِّل إليهم** ﴾(٣) .

٣ ـــ هو ﷺ أدرى الناس بلغة القرآن ، فهو ﷺ قرشى ، نشأ فى بادية بنى سعد المشهورة بالفصاحة والبيان ، حتى قال ﷺ : « أنا أعرب العرب ، ولدت فى قريش ، ونشأت فى بنى سعد ، فأنَّى يأتينى اللحن » (٤) .

وليس الأمر قصراً على ذلك ـــ كونه قرشياً تربى فى بنى سعد ـــ وإنما زاد عن ذلك أن الله سبحانه علمه هذه اللغة ـــ لغة القرآن ـــ فكان يعرف كل لهجات القبائل ، ويحدثهم بلغتهم ، حتى بهر ذلك من اطلع عليه من الصحابة .

فعن ابن عمر قال : « قال عمر يانبى الله مالك أفصحنا ؟ فقال النبى ﷺ : جاءنى جبريل فلقننى لغة أبى إسماعيل » (٥) .

---

(١) أخرجه البخارى فى أحاديث الأنبياء باب قول الله : ﴿ **ولقد آتينا لقمان الحكمة** ﴾ ج ٦ ص ٤٦٥ رقم ٣٤٢٩ وقول الله تعالى : ﴿ **لا تشرك بالله** .. ﴾ الآية من سورة لقمان آية ١٣ .

(٢) أخرجه البخارى عن أبى هريرة فى الجهاد باب الخيل لثلاثة ج ٦ ص ٦٣ رقم ٢٨٦٠ وفى غير هذا الموضع .

(٣) ذكره فى مفتاح الجنة ص ١٦ وعزاه لابن أبى حاتم .

(٤) أخرجه الطبرانى عن أبى سعيد الخدرى ، وأخرجه ابن سعد بنحوه عن زكريا بن يحيى بن يزيد السعدى عن أبيه . قال فى الجامع الكبير ٣٢٧/١ معضلًا .

(٥) أخرجه أبو نعيم فى تاريخ أصبهان بسند ضعيف . راجع المقاصد الحسنة ص ٢٩ ، ٣٠ رقم ٤٥ .

وهكذا يتضح لنا أن الله سبحانه ذكر فى كتابه أن بيان القرآن موكول له ﷺ تتضمنه سنته ، ويتضح لنا أن الله سبحانه وتعالى قد أعطى نبيه ﷺ من الخصائص ما يجعله أقدر الناس على بيان القرآن الكريم .

على أن المتأمل للقرآن الكريم والسنة النبوية يجد البيان واقعاً ملموساً ، فيجد مثلا أن الله سبحانه قد أمرنا فى القرآن بإقام الصلاة ، وليس فى القرآن بيان لعدد الركعات ، ولا لأول الوقت ولا لآخره ، كما أنه ليس فيه بيان لكيفية الصلاة ، وكل هذا نجده مبيناً فى السنة ، فلقد وضح ﷺ ذلك ، وفوق ذلك ،
وقال : « صلوا كما رأيتمونى أصلى »[1] . وما يقال عن الصلاة يقال عن الصيام والزكاة والحج ، فبينّ ﷺ كل ذلك وقال:« لتأخذوا مناسككم» [2]

والمتأمل يجد أن الله سبحانه أمر بقطع يد السارق ، فقال سبحانه:
﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالًا من الله ، والله عزيز حكيم** ﴾ [3] ولم يبين سبحانه مقدار الشيء الذى تقطع فيه اليد ، كما لم يبين من أين تقطع اليد ، فجاءت السنة فبينت كل ذلك [4] .

ولذا فإن استفسارات وجهت لبعض الصحابة ، لم لا تكون أحاديثكم بالقرآن ؟ فكان الجواب لقد أردنا بيان القرآن ، وبيانه السليم القويم ما جاء على لسان الرسول المعصوم ، فما الأحاديث التى نحدثكم بها إلّا البيان السليم للقرآن ، لا أنها غير القرآن .

---

(١) أخرجه البخارى فى الأذان باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة .. إلخ ج٢ ص ١١١ حديث ٦٣١ وأخرجه أيضا فى الأدب باب رحمة الناس والبهائم ٤٣٧/١٠ حديث ٦٠٠٨ عن مالك بن الحويرث ، وأخرجه كذلك الدارمى وأحمد .

(٢) أخرجه مسلم فى الحج باب استحباب رمى جمرة العقبة يوم النحر راكباً ... إلخ ج ٢ ص ٩٤٣ حديث ١٢٩٧/٣١٠ . واللام فى قوله ﷺ : « لتأخذوا » للأمر كذا قال النووى . وأخرجه أبو داود فى المناسك باب فى رمى الجمار ٤٤٥/٥ عون المعبود كلاهما عن جابر ، وأخرجه كذلك النسائى ، وأحمد ٣١٨/٣ ، ٣٦٦ .

(٣) سورة المائدة آية ٣٨ .

(٤) راجع الموافقات للشاطبى ٣ / ١٩٦ المسألة الأولى فى البيان والإجمال .

من هذه الاستفسارات ماورد أن عمران بن حصين رضى الله عنه ذكر الشفاعة فقال رجل من القوم: ياأبا نجيد إنكم تحدثونا بأحاديث لم نجد لها أصلًا فى القرآن ؟ فغضب عمران وقال للرجل قرأت القرآن ؟ قال نعم قال : فهل وجدت فيه صلاة العشاء أربعاً ، ووجدت المغرب ثلاثاً ، والغداة ركعتين ، والظهر أربعاً ، والعصر أربعاً ؟ قال : لا ، قال : فعن من أخذتم ذلك ؟ ألستم عنا أخذتموه ، وأخذناه عن رسول الله ﷺ ؟ أوجدتم فيه من كل أربعين شاة شاة ، وفى كل كذا بعير كذا ، وفى كل كذا درهم كذا ؟ قال : لا ، قال فعن من أخذتم ذلك ؟ ألستم عنا أخذتموه وأخذناه عن النبى ﷺ ؟ وقال : أوجدتم فى القرآن ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ أوجدتم فيه فطوفوا سبعاً ، واركعوا ركعتين خلف المقام ؟ أوجدتم فى القرآن لا جلب ولا جنب ولا شغار فى الإسلام ؟ أما سمعتم الله قال فى كتابه: ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ ؟ قال عمران : فقد أخذنا عن رسول الله ﷺ أشياء ليس لكم بها علم(١) .

وهذا أيضاً ما فهمه ابن مسعود حينما اعترضت عليه امرأة فى لعنه الواشمات وسيأتى(٢) .

وقال رجل عند مطرف بن عبد الله : « لا تحدثونا إلَّا بما فى القرآن . فقال مطرف : إنا والله ما نريد بالقرآن بدلاً ، ولكنا نريد من هو أعلم بالقرآن منا (٣) .

---

(١) ذكره بهذا اللفظ فى مفتاح الجنة ص ٦ وعزاه للبيهقى فى المدخل الصغير . وأخرجه الحاكم فى المستدرك ١ / ١٠٩ بنحوه ، وفيه أن الرجل قال لعمران بن حصين: أحييتنى أحياك الله . وأن الحسن قال : فما مات هذا الرجل حتى صار من فقهاء المسلمين وأخرجه الخطيب فى الكفاية باب تخصيص السنن لعموم محكم الكتاب ص ٤٨ . وأخرجه أبو داود مختصراً فى الزكاة باب ما تجب فيه الزكاة ٩ / ١٣١ المنهل العذب المورود وعزاه فى الشرح إلى البيهقى فى البعث وأظن الصواب أنه فى المدخل . وذكره فى مفتاح الجنة ص ٢٠ وعزاه للبيهقى فى المدخل الكبير والحاكم .

(٢) سيأتى هذا ــ إن شاء الله تعالى ــ فى الرد على شبهة من قال : كيف تكون السنة قد جاءت بما ليس فى القرآن .

(٣) أخرجه أبو خيثمة فى العلم ص ٢٥ رقم ٩٧ وأخرجه البيهقى فى المدخل ، كذا فى مفتاح الجنة ص ٢١ .

ويقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه: « سيأتى أناس يجادلونكم بشبهات القرآن ، فخذوهم بالسنن ، فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله »[1] .

ويقول على بن أبى طالب كرم الله وجهه : « سيأتى قوم يجادلونكم فخذوهم بالسنن ، فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله » [2]

أوجه بيان السنة للكتاب :

قال الإمام الشافعى فى رسالته : فلم أعلم من أهل العلم مخالفاً فى أن سنن النبى من ثلاثة وجوه ، فاجتمعوا منها على وجهين ، والوجهان يجتمعان ويتفرعان :

أحدهما : ما أنزل الله فيه نص كتاب ، فيبين رسول الله مثل ما نص الكتاب .

والآخر: ما أنزل الله فيه جملة كتاب فبين عن الله معنى ما أراد ، وهذان الوجهان اللذان لم يختلفوا فيهما .

والوجه الثالث : ما سن رسول الله فيما ليس فيه نص كتاب ، فمنهم من قال جعل الله بما افترض من طاعته وسبق فى علمه من توفيقه لرضاه أن يسن فيما ليس فيه نص كتاب . ومنهم من قال لم يسن سنة قط إلا ولها أصل فى الكتاب ، كما كانت سنته لتبين عدد الصلاة وعملها على أصل جملة فرض الصلاة ، وكذلك ما سن من البيوع وغيرها من الشرائع ، لأن الله قال: ﴿ **لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** ﴾ وقال : ﴿ **وأحل الله البيع وحرم الربا** ﴾ فما أحل وحرم فإنما بيّن فيه عن الله كما بين الصلاة .

ومنهم من قال : بل جاءته به رسالة الله ، فأثبتت سنته بفرض الله .

---

(١) أخرجه ابن حزم فى الإحكام فى أصول الأحكام جـ ٢ ص ٢٥٠ ، والدارمى فى باب التورع عن الجواب فيما ليس فيه كتاب ولا سنة جـ ١ ص ٤٧ رقم ١٢١ .

(٢) أخرجه اللالكائى فى السنة ، كذا فى مفتاح الجنة ص ٣٤ .

ومنهم من قال : ألقى فى روعه كل ما سن . وسننه الحكمة : الذى ألقى فى روعه عن الله ، فكان ما ألقى فى روعه سنته (١)

ثم ذكر الشافعى أثراً يفيد أن السنة مما ألقى الله فى روع رسوله ﷺ فقال : أخبرنا عبد العزيز عن عمرو بن أبى عمرو عن المطلب قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الروح الأمين قد ألقى فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها فأجملوا فى الطلب » (٢) ثم قال الشافعى : فكان مما ألقى فى روعه سنته ، وهى الحكمة التى ذكرها الله ، وما نزل به عليه كتاب فهو كتاب الله ، وكل ما جاءه من نعم الله كما أراد الله وكما جاءته النعم تجمعها النعمة وتتفرق بأنها فى أمور بعضها غير بعض ، ونسأل الله العصمة والتوفيق أ . هـ كلام الشافعى (٣) .

قلت : مثال : الوجه الأول :

الآيات الآمرة بالصلاة والصوم والزكاة والحج مع حديث:« بنى الإسلام على خمس ... » الحديث . وكذلك قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وعاشروهن بالمعروف** ﴾ جاء حديث : « **اتقوا الله فى النساء** » مؤيداً لهذه الآية .

ومثال الوجه الثانى :

أ ـــ الأحاديث التى تفصل مجمل القرآن ، كالأحاديث التى تفصل أحكام الصلاة التى جاء الأمر بها مجملاً . وكذلك الصيام والحج .

ب ـــ الأحاديث التى تقيد مطلق القرآن ، كالأحاديث التى قيدت آية: ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما** ﴾ قيدت السارق بأنه الذى يسرق ربع دينار من حرز المثل ، وقيدت القطع بأنه من الكوع ، ويبدأ باليمنى .

---

(١) ص ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) ورحم الله الشافعى . وراجع الموافقات للشاطبى ٤ / ٩ ـــ ٤٧ فلقد أجاد ـــ رحمه الله ـــ فى هذه المسألة وأفاد ، ولقد استفاد منه فضيلة الشيخ أبو زهـو واختصر هذا المبحث منه فى كتابه « الحديث والمحدثون » ص ٣٧ ـــ ٤٥ ، واستفاد منه كذلك الشيخ مصطفى السباعى فى كتابه « السنة ومكانتها فى التشريع » ص ٣٧٩ ـــ ٣٩٨ فيمكنك مراجعة أى مصدر من هذه المصادر فى هذا المبحث .

جـ ـــ الأحاديث التى تخصص عام القرآن ، كأحاديث الزكاة التى قيدت آية: ﴿ **خذ من أموالهم صدقة** ﴾ قيدتها بأن الأموال التى تؤخذ منها الزكاة هى ما بلغ النصاب لا مطلق مال .

د ـــ الأحاديث التى توضح بعض معانى القرآن : كتفسير الظلم فى قوله سبحانه: ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم** ﴾ بأنه الشرك . وتفسير الحساب اليسير فى قوله سبحانه: ﴿ **فسوف يحاسب حساباً يسيرا** ﴾ بأنه العرض .

ومثال الوجه الثالث :

١ ـــ حل ميتة السمك والجراد ، وحل الكبد والطحال .

٢ ـــ الحكم بأن ذكاة الجنين ذكاة أمه .

٣ ـــ تحريم كل ذى ناب من السباع ، وكل ذى مخلب من الطيور ، والحمر الأهلية .

٤ ـــ تحريم الجمع بين المرأة وعمتها ، والعكس . وبين المرأة وخالتها ، والعكس .

٥ ـــ تغريب الزانى غير المحصن ، ورجم المحصن .

٦ ـــ حرمان الكافر من ميراث قريبه المسلم ، وكذا حرمان القاتل والرقيق .

٧ ـــ صدقة الفطر .

٨ ـــ القضاء بالشاهد واليمين .

ومما زادته السنة أيضاً :

٩ ـــ القصص التى للترغيب والترهيب كقصة الأقرع والأبرص والأعمى ، وقصة الثلاثة الذين التجأوا إلى الغار[١] .

---

(١) راجع المصادر السابقة فى موضوع زيادة السنة على الكتاب ، وآراء العلماء فى ذلك . وهل زيادتها بيان للقرآن ، أو استقلال بأحكام ؟ .

وبعد فلعله بعد مناقشة هذه القضايا الثلاث :

ــ السنة وحى من الله تعالى .

ــ أمر القرآن الكريم باتباع السنة .

ــ السنة تبين القرآن الكريم .

تكون قد اتضحت منزلة السنة ، وأنها فى منزلة القرآن الكريم ، إذ مصدرها الوحى ، وهى بيان له ، والأمة ملزمة بها بنص القرآن الكريم .

ولقد بين ﷺ أيضاً أن على الأمة أن تمتثل كل ما جاءت به السنة ، إذ يقول ﷺ : « ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه ، يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه[١] » .

وقال ﷺ أيضاً : « أتانى الله القرآن ومن الحكمة مثله[٢] » .

وقال أيضاً ﷺ : « مهما أوتيتم من كتاب الله فالعمل به لا عذر لأحد فى تركه ، فإن لم يكن فى كتاب الله فسنة منى ماضية[٣] » .

بل حذر ﷺ من ترك سنته فقال : « ستة لعنتهم ، لعنهم الله ، وكل نبى مجاب الدعوة ، الزائد فى كتاب الله ، والمكذب بقدر الله المتسلط بالجبروت ليذل بذلك من أعز الله ، ويعز من أذل الله ، والمستحل لحرم الله ، والمستحل من عترتى ما حرم الله ، والتارك لسنتى[٤] » .

---

(١) أخرجه الحاكم ج ١ ص ١٠٨ ، ١٠٩ وابن حبان ج ١ ص ١٧٣ حديث رقم ١٢ ، والترمذى وأبو داود وابن ماجة وأحمد والخطيب فى الكفاية باب ما جاء فى التسوية بين حكم كتاب الله تعالى وحكم سنته ﷺ ص ٣٩ ، ٤٣ والشافعى فى الرسالة ص ٥١ . وأحمد ٦ / ٨ وقال الترمذى : حسن صحيح . وأخرجه فى شرح السنة فى كتاب الإيمان باب الاعتصام بالكتاب والسنة ١ / ٢٠٠ وقال : هذا حديث حسن .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) أخرجه الخطيب فى الكفاية باب ما جاء فى تعديل الله ورسوله للصحابة ص ٩٥ والبيهقى فى المدخل ص ١٦٢ رقم ١٥٢ .

(٤) أخرجه الحاكم ١/٣٦، ٢/٥٢٥، ٤/٩٠ ــ وصححه ــ والطبرانى والبيهقى فى المدخل .

ومن ثَمَّ نجد صدر الأمة كانوا حريصين على تمام الامتثال لسنته ﷺ ، فلا يزيدون شيئاً ، ويحرصون على الكمال .

فها هو ذا طاووس يصلى بعد العصر ركعتين فيقول له ابن العباس : اتركهما فقول : ما أَدَعُهما . فيقول : فإنه قد نهى النبى ﷺ عن صلاة بعد العصر ، ولا أدرى أتعذب أم تؤجر ؟ لأن الله قال : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم** ﴾ (١) .

ويقول أيوب السختيانى :« إذا حدثت الرجل بسُنَّة فقال : دعنا من هذا ، وأنبئنا عن القرآن فاعلم أنه ضال(٢) » .

وقال الإمام مالك:« السنة سفينة نوح ، من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق » .

ويقول الإمام الشافعى : « إذا وجدتم لرسول الله ﷺ سنة فاتبعوها ولا تلتفتوا إلى قول أحد(٣) » .

وحدث الإمام الشافعى بحديث عن رسول الله ﷺ فقال له رجل يا أبا عبد الله أتأخذ بهذا ؟ فقال : أرأيتنى خرجت من كنيسة : ترى على زناراً حتى لا أقول به(٤) .

وقال مرة أخرى : متى عرفتُ لرسول الله ﷺ حديثاً ولم آخذ به فأنا أشهدكم أن عقلى قد ذهب(٥) .

---

(١) أخرجه الدارمى فى المقدمة باب ما يتقى من تفسير حديث النبى ١ / ٩٥ رقم ٤٤٠ ، وأخرجه البيهقى والحاكم كذا فى مفتاح الجنة ص ١٩ وهو عند الحاكم فى العلم باب إنما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله جـ ١ ص ١١٠ وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبى .

(٢) أخرجه البيهقى ، كذا فى مفتاح الجنة ص ٢١ وأخرجه الخطيب فى الكفاية باب تخصيص السنن ص ٤٩ .

(٣) أخرجه فى الحلية ٩ / ١٠٧ .

(٤) أخرجه أبو نعيم فى الحلية ج ٩ ص ١٠٦ .

(٥) آداب الشافعى ومناقبه ص ٦٧ ، ٩٣ ومعرفة السنن والآثار ص ١٤٥ والمدخل إلى السنن ص ٢٠٥ . والحلية ٩ / ١٠٦ .

وسأل رجل الإمام الشافعى عن حديث فقال : هو صحيح . فقال له الرجل : فما تقول ؟ فارتعد وانتفض وقال : أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى إذا رويت عن النبى ﷺ وقلت بغيره ؟(١) .

وسأل رجل الإمام مالكاً مسألة ، فقال مالك : قال رسول الله ﷺ .. (وذكر له الحديث المشتمل على جواب مسألته) فقال الرجل : أرأيت ؟ (يريد ما رأيك أنت) قال مالك: ﴿ **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم** ﴾ يريد مالك ــ رحمه الله ــ أنه لا رأى لأحد مع حديث رسول الله ﷺ (٢) .

ونجدهم ــ أى صدر الأمة ــ أيضاً يسوون بين القرآن الكريم والسنة النبوية ،فها هو ذا أبو هريرة رضى الله عنه يقول:« إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة ولولا آيتان من كتاب الله ما حدثت حديثاً ، ثم تلا: ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب** ﴾ و ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات والهدى** ﴾ وإن إخواننا المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق ، وإخواننا الأنصار كان يشغلهم العمل فى أموالهم ، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ لشبع بطنه ، ويحضر ما لا يحضرون(٣) .

قال أبو عمر بن عبد البر: فى هذا الحديث من الفقه معان عدة :

ــ منها : أن الحديث عن رسول الله ﷺحُكمه حكم كتاب الله المنزل .

ــ ومنها : إظهار العلم ونشره وتعليمه .

ــ ومنها : ملازمة العلماء والرضى باليسير للرغبة .

ــ ومنها : الإيثار للعلم على الاشتغال بالدنيا وبكسبها(٤) ا . هـ .

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية ص ١٠٦ .

(٢) ذكره فى شرح السنة فى كتاب الإيمان باب الاعتصام بالكتاب والسنة ج ١ ص ١٩١ وقد اقتبسته منه بشىء من التوضيح . والآية التى استدل بها الإمام مالك من سورة النور رقم : ٦٣ .

(٣) أخرجه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم ج ١ ص ١١٦ . وقد أخرجه البخارى فى العلم باب حفظ العلم ج ١ ص ٢١٣ رقم ١١٨ .

(٤) جامع بيان العلم ج ١ ص ١١٦ .

أوجه تضمن القرآن السنة :

والسنة وإن كانت قد زادت بعض أحكام ومواعظ على القرآن الكريم ، فإنها لم تخرج من دائرته ، وإنما هى بيان وتفصيل له ، وهو متضمن لكلياتها بأوجه . وعليه فلا يقول قائل كيف تكون السنة قد جاءت بما ليس فى القرآن وقد قال الله: ﴿ **ما فرطنا فى الكتاب من شىء** ﴾(١) وكيف تكون بياناً للقرآن وقد قال الله تعالى : ﴿ **ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء** ﴾(٢) ؟ لأن هذا يجاب عليه بأن السنة — وإن زادت بعض أشياء — لم تخرج عن دائرة القرآن

---

(١) سورة الأنعام الآية ٣٨ .

(٢) سورة النحل الآية ٨٩ . وهاتان الآيتان يستدل بهما البعض على أن السنة لا يمكن أن تزيد شيئاً عن القرآن ، وأن القرآن غير محتاج لبيانها ، إذ فيه تبيان كل شىء . والآيتان لا تدلان على دعواهم لما يأتى :

١ — قول الله تعالى : ﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شىء ﴾ جزء من ، آية تتمتها ﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلَّا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون ﴾ وسياق الآية يفيد أن المراد بالكتاب إنما هو اللوح المحفوظ وليس القرآن ، وأكثر المفسرين على هذا .

٢ — على القول بأن المراد بالكتاب فى الآية إنما هو القرآن فيكون المعنى « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » بمعنى أن الله سبحانه وتعالى أنزل الكتاب على نبيه ﷺ شاملاً كليات الدين ، أما الفرعيات فإن الله سبحانه وتعالى يوحيها إلى نبيه ﷺ ويعلمها إياه ، وهذا من البيان الذى تكفل الله به لنبيه فى قوله: ﴿ إن علينا جمعه وقرآنه،فإذا قرأناه فاتبع قرآنه،ثم إن علينا بيانه ﴾ .

٣ — قول الله تعالى : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء ﴾ معناه أن الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن على نبيه ﷺ ليبين للناس كل شىء فى دينهم ، وهذا أحد معانى الآية .

٤ — على القول بأن معنى الآية : ونزلنا عليك الكتاب مبيناً كل شىء ، فالمراد أن القرآن يبين الكليات ، أما التفصيل فإنما هو فى السنة ، أو أنه يبين كل أمور الشريعة إما نصاً ، وإما بذكر المصادر التى تؤخذ منها .

وإنما حَمَلْنا عدم التفريط فى الكتاب على شموله الكليات دون الجزئيات ، وحملنا البيان على أنه للكليات لا الجزئيات ، حملنا الآيتين على هذا لأمرين :

الأول : حتى تتفق هاتان الآيتان مع الآيات الأخرى والتى تنص على أن بيان القرآن يوحيه الله إلى نبيه ، وهو سنته ﷺ ، من هذه الآيات قول الله تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ وقوله سبحانه:﴿ إن علينا جمعه وقرآنه،فإذا قرأناه فاتبع قرآنه،ثم إن علينا بيانه ﴾ .

الثانى : أن الواقع يشهد بذلك ، ففى القرآن كثير من الكليات اشتملت السنة على تفصيلها ، ففيه الأمر بالصلاة ، لكن ليس فيه عدد ركعاتها ، ولا تحديد أوقاتها ، ولا كيفية أدائها ، فجاءت السنة بذلك وقال ﷺ:« صلوا كما رأيتمونى أصلى » .

الكريم إذ هو يتضمنها بأحد الأوجه الآتية :

الوجه الأول :

إن القرآن دل على وجوب العمل بالسنة ، فكل عمل جاءت به السنة عمل بالقرآن . وهذه الطريقة عامة ،» مم· أخذ بها الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود ، فقد رُوى أن امرأة من بنى أسد أتته فقالت : يا أبا عبد الرحمن بلغنى أنك لعنت الواشمات والمستوشمات ، والمتنمصات والمتفلجات للحسن ، المُغَيِّرات خلق الله ؟ فقال : وما لى لا ألعن من لعنه رسول الله ﷺ ، وهو فى كتاب الله ؟ فقالت المرأة : لقد قرأت ما بين لوحى المصحف فما وجدته ! فقال : لئن كنت قرأتيه لوجدتيه ، قال الله عز وجل : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾(1) .

= ومجمل القول أن القرآن الكريم اشتمل على كليات الإسلام وأصوله ، وترك التفصيل للمصادر الأخرى ، ونص على وجوب العمل بهذه المصادر وعليه فالعمل بهذه المصادر عمل بالقرآن ، والقرآن شامل لها ومتضمنها ، وهذه المصادر هى :

السنة : لقوله تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ وقد قدمت الكثير من الأدلة على حجية السنة عند الكلام على « نص القرآن على حجية السنة » .

الإجماع : لقوله تعالى : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾ .

القياس : لقوله تعالى: ﴿ فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾ .

فلما دل القرآن على حجية هذه المصادر كان العمل بها عملاً بالقرآن ، إذ هو الذى نص على ذلك ، وألزمنا به . وهذا أحد الأوجه التى سأذكرها فى تضمن القرآن السنة . وإنما أردت بهذه التعليقة أن أبين للقارىء عدم صحة الاستدلال بالآيتين على رفض السنة ، بل إن التأمل فيهما يظهر أنهما يقويان الاحتجاج بالسنة والإجماع والقياس . وراجع الفتوحات الإلهية المشهور بـ حاشية الجمل ج ٢ ص ٥٩٣ .

وهذان الأمران اللذان دفعانا إلى تفسير الآيتين على هذا النحو نتساءل مع منكرى السنة عنهما فنقول : إذا كنتم تنكرون السنة فإنه لا يمكنكم العمل بالقرآن ، لأن الآيات التى تنص على أن بيان القرآن موكول إلى رسول الله ﷺ لا يمكنكم العمل بها إلّا بامتثال السنة ، وأيضاً لا يمكنكم العمل بما جاء فى القرآن مجملاً لأنه يحتاج إلى بيان ، وبيانه فى السنة ، فكيف تمتثلون الأمر بالصلاة إذا أنكرتم السنة ؟ ورحم الله الأوزاعى إذ قرأ:﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء ﴾ فقال : أى بالسنة أخرج ذلك عنه ابن أبى حاتم فى تفسيره . وراجع الدر المنثور ٤ / ١٢٨ وراجع تفسير ابن كثير ٢ / ٥٨٢ .

(١) أخرجه البخارى ومسلم وأحمد وغيرهم .

ومن ذلك أن عبد الرحمن بن يزيد رأى محرماً عليه ثيابه فنهاه ، فقال : ائتنى بآية من كتاب الله تنزع ثيابى فقرأ عليه : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه ... الآية** ﴾ .

الوجه الثانى :

أن الكتاب مجمل والسنة مفصلة له ، كالأحاديث الواردة فى بيان ما أجمل ذكره من الأحكام ، إما بحسب كيفيات العمل ، أو أسبابه أو شروطه أو موانعه أو لواحقه أو ما أشبه ذلك ، فبيانها للصلوات على اختلافها فى مواقيتها وركوعها وسجودها وسائر أحكامها ، وبيانها للزكاة فى مقاديرها وأوقاتها ونصب الأموال المزكاة ، وبيان أحكام الصوم مما لا نص عليه فى القرآن ، وكذلك أحكام الحج ، والذبائح ، والأنكحة وما يتعلق بها ، والبيوع وأحكامها ، والجنايات من القصاص وغيره ، مما وقع بياناً لما أجمل فى القرآن ، وهو الذى يظهر دخوله تحت قوله تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّلَ إليهم** ﴾ .

الوجه الثالث :

أن السنة لم تتعد مقاصد التشريع القرآنى ، فإن القرآن جاء لإسعاد البشرية فى دنياها وآخرتها ، والسنة لم تتعد هذا ، وإنما اشتركت مع القرآن فى تحقيق هذا الهدف السامى بشىء من البيان والشرح ، وذلك أن القرآن الكريم أتى بالتعريف بمصالح الدارين جلباً لها ، والتعريف بمفاسدها دفعاً لها ، والمصالح تنحصر فى الضروريات والحاجيات والتحسينات ومكملاتها ، والسنة لا تزيد على تقرير هذه الثلاثة ، غير أن الكتاب يأتى بها أصولاً يرجع إليها والسنة أتت بها تفريعاً على الكتاب ، وبياناً لما فيه منها ، فلا تجد فى السنة إلَّا ما هو راجع إلى هذه الأقسام(١) .

الوجه الرابع :

أن القرآن قد ينص على حكمين متقابلين ، ويكون هنالك ما فيه شبه بكل واحد منهما ، فتأتى السنة وتلحقه بأحدهما ، أو تعطيه حكماً خاصًّا يناسب الشبهين .

(١) راجع الموافقات ٤ / ١٩ ــ ٢٢ و ٢ / ٤ .

وقد ينص القرآن على حكم بشيء لعلة فيه ، فيلحق به الرسول ﷺ ما وجدت فيه العلة عن طريق القياس .

فمثال : ما أشبه حكمين متقابلين وألحقته السنة بأحدهما ما يلى :

حرم الله الميتة وأباح المذكاة ــ أى المذبوح ــ فدار الجنين الخارج من بطن المذكاة ميتاً بين الطرفين فاحتملهما ، فإذا راعينا أنه جزء من مذكاة فهو حلال ، وإن راعينا استقلاله فهو حرام . فجاءت السنة فألحقته بالمذكاة ، كما قال ﷺ: « ذكاة الجنين ذكاة أُمّه » .

ومثال ما أشبه حكمين متقابلين وأعطته السنة حكماً خاصًّا يناسب الشبهين ما يلى :

أحل الله النكاح ، وملك اليمين ، وحرم الزنا ، وسكت عن النكاح المخالف للشرع فإنه ليس بنكاح محض ، ولا سفاح محض ، فجاء فى السنة : « أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل ، فنكاحها باطل ، فإن دخل بها فلها المهر بما استحل منها » .

ومثال ما نص القرآن عليه لعلة فألحقت السنة به ما توافرت فيه هذه العلة عن طريق القياس ما يلى :

حرم الله الجمع بين الأختين فى النكاح ، وجاء فى القرآن: ﴿ **وأُحل لكم ما وراء ذلكم** ﴾ فجاء نهيه ﷺ عن الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها من باب القياس ، لأن المعنى الذى لأجله ذم الجمع بين الأختين موجود هنا ، وهو ما عبر عنه فى الحديث: « فإنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم » والتعليل يشعر بوجه القياس .

الوجه الخامس :

إرجاع كل ما فى السنة من الأحكام التفصيلية إلى الأحكام التفصيلية فى القرآن الكريم ، مثال ذلك :

طلق عبد الله بن عمر زوجته وهى حائض فقال النبى ﷺ لعمر: « مره فليراجعها ثم يتركها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، ثم إن شاء أمسك بعد ، وإن شاء طلّق قبل أن يمس ، فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء » يعنى

أمره سبحانه فى قوله تعالى: ﴿ يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾ . هذا الوجه لا يمكن أن يُوَف ، وقد قال الشاطبى بذلك .

هذه هى أهم الأوجه التى سلكها الأئمة لبيان أن السنة بيان للقرآن ، وكل ما زادته السنة لن يخرج عن أحد هذه الأوجه أو كلها[1] ، وأعم هذه الأوجه وأشملها الوجه الثالث .

عرض السنة على الكتاب :

قد يقول قائل : كيف تأتى السنة بجديد ، وقد قال ﷺ : « ما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله ، فما وافقه فأنا قلته ، وما خالفه فلم أقله »[2] .

قلت : أعداء الإسلام فى هذا الزمن يتصيدون أدلتهم من التراث الإسلامى ولا يكلفون أنفسهم شيئاً ، إلَّا أنهم قد تخصصوا فى الخيانة العلمية ، فإن الكتب الإسلامية جرى مؤلفوها على تصوير الشبهة ، ثمّ الإجابة عليها ، فهؤلاء يجمعون الشُّبه ويتركون الإجابة عليها ، فهذا الاعتراض الذى يردده أعداء الإسلام اليوم هو اعتراض قديم ، وقد وُجِّه للإمام الشافعى فأجاب عليه فى رسالته .

سئل : أفنجد حجة على من روى أن النبى ﷺ قال : ما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله ، فما وافقه فأنا قلته ، وما خالفه فلم أقله ؟ .

قال فقلت له : ما روى هذا أحد يثبت حديثه فى شيء صغر ولا كبر ، فيقال لنا قد ثبّتم حديث من روى هذا فى شيء . وهذه أيضاً رواية منقطعة

---

(١) راجع الموافقات ٤ / ١٧ — ٣٤ المسألة الرابعة من مسائل الدليل الثانى « السنة » وفى هذا المرجع وجوه أكثر مما ذكرت هنا وأمثلة أكثر بكثير .

(٢) هذا الحديث سئل عنه الحافظ ابن حجر فقال : إنه جاء من طرق لا تخلو من مقال المقاصد ص ٣٦ ، ٣٧ . وقد جمع طرقه البيهقى فى كتاب « المدخل » وبيَّن ضعف كل طريق . راجع مقدمة المعرفة ص ٢٤ ، ٢٥ ، ونقل ابن الجوزى فى الموضوعات ٢٥٨/١ عن الخطابى أن هذا الحديث وضعته الزنادقة وأنه باطل لا أصل له . وسيأتى كلام الشافعى عنه نقلًا عن « الرسالة » ، وقال محقق المقاصد : واستوعبت طرقه فى كتاب « الابتهاج بتخريج أحاديث المنهاج » للبيضاوى ، وبينت بطلانه من جميع طرقه .. إلخ .

عن رجل مجهول ، ونحن لا نقبل مثل هذه الرواية فى شىء .

سئل فهل عن النبى ﷺ رواية بما قلتم ؟ .

قال : فقلت له : نعم ، أخبرنا سفيان ، قال أخبرنى سالم أبو النضر ، أنه سمع عبيد الله بن رافع يحدث عن أبيه أن النبى ﷺ قال : « لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا أدرى ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه » .

قال : فقد ضيق رسول الله ﷺ على الناس أن يردوا أمره ، بفرض الله عليهم اتباع أمره[1] .

قلت : وهذا الحديث نفسه يعارض القرآن ، فكيف لا نقبل من رسول الله ﷺ إلّا ما كان فى القرآن والله يقول: ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ ويقول : ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾ ويقول : ﴿ **وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول** ﴾ !! ولو كانت طاعة الرسول محددة بإطار القرآن لبيّن القرآن ذلك ، ولما أطلق الأمر بالطاعة ، فكيف وقد أطلقه ؟ بل إنه جعل طاعة الرسول طاعة لله سبحانه وتعالى ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾ ونفى الإيمان عمن لم يرض حكمه ﷺ بنفس طيّبة ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً** ﴾ .

وفوق هذا فإن هذا الحديث : « ما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله ، فما وافقه فأنا قلته ، وما خالفه فلم أقله » لا ينفى أن تأتى السنة بجديد ، وأن تستقل بأحكام ، ذلك أن الجديد الذى تأتى به السنة لا يعارض القرآن ، وإنما يتفق معه ، والسنة إذ تأتى بجديد لا تخرج عن القرآن الكريم — كما سبق أن بينت — وعليه فعلى فرض صحة هذا الحديث فإنه لا يضيف شيئاً ، فإن الجميع يسلم أن أى حديث من أحاديث السنة إذا خالف القرآن رُدَّ ، إلا أن ما تضيفه السنة ليس مخالفاً للقرآن ، وإنما هو بيان قد يحتوى على زيادة . قال الشافعى : وليس يخالف القرآن الحديث ، ولكن حديث رسول الله ﷺ مبين

---

(١) الرسالة ص ١٠٤ ، ١٠٥ فقرات ٦١٧ — ٦٢٣ .

معنى ما أراد الله ، خاصاً وعاماً ، وناسخاً ومنسوخاً ، ثم يلزم الناس ما سن بفرض الله ، فمن قبل عن رسول الله ﷺ فعن الله عز وجل قَبِل. أ . هـ .(١) .

وسوف أناقش هدف أعداء الإسلام من حملتهم المسعورة على السنة فى العنوان التالى إن شاء الله تعالى ، وأسأل الله الكريم من فضله التوفيق والسداد والرشاد .

ثبوت السـنة :

ظهر فى هذه الآونة الأخيرة من ينكر قدر السنة ، ويدعو إلى تركها محتجاً بأن أحاديثها ليست ثابتة كلها أو بعضها .

وهذا النوع من الناس غذته ثقافة إلحادية ، وجدت طريقها إلى المثقفين ثقافة مادية عن طريق بعض الملاحدة والمستشرقين ، ومغزى هذه الثقافة أن القرآن ذو حساسية خاصة عند المسلمين ، فلا يمكن مساس العقيدة من جهته بادىء ذى بدء ، فاتجه هؤلاء إلى السنة يريدون القضاء عليها ، حتى يصبح القرآن فى حاجة إلى ما يبينه ، فإما تبينه أهواؤهم ، وإما يترك على أنه أثر دين قد انمحى .

واتخذ هؤلاء فى سبيل القضاء على السنة طرقاً مختلفة ، فراحوا ينشرون مزايا السنة على أنها عيوب ، فإن السنة قد دوّن الصحيح منها على حدة ، كما دُوّن الحسن والضعيف على حدتهما ، كما دُوّن الموضوع على حدة . وهذه مزية للسنة لم يصل إليها أى علم من العلوم ، فإن وجود من يدافع عن السنة مع قدرته على تمييز الأصل من الزيف لهو من أعظم مزايا السنة .

إلّا أن أعداء الإسلام استطاعوا أن يصوروا هذه المزية على أنها عيب !! فراحوا يقولون إن السنة فيها الضعيف والموضوع ، وأشاعوا هذا بين المسلمين ، والعامة من المسلمين لا يعرفون تاريخ سنة نبيهم ﷺ ، فظنوا أن السنة فيها الضعيف والموضوع دون تمييز ، ولو أن المسلمين قد درسوا تاريخ سنة نبيهم

(١) كتاب سير الأوزاعى من الأم ج ٧ ص ٣٤٠ ، ٣٤١ .

لعلموا أنها فى صحتها وثبوتها تفوق أى علم من العلوم ، وأى مصدر من مصادر الأديان الأخرى ، ولعلموا أن وجود الضعيف فى السنة أقوى دليل على ثبوتها وقوتها .

وراح أعداء الإسلام أيضاً يجرحون رواة الحديث ، خاصة المشاهير منهم ، ولو علم المسلمون تاريخ هؤلاء الرواة لما شاع لأعداء الإسلام قول ، ولما قُبِل منهم خبر .

وراحوا يذكرون الأحاديث التى ظاهرها التعارض ، ولو علم المسلمون معانى هذه الأحاديث لما أشكل ذلك عليهم .

راح أعداء الإسلام إلى كل ناحية يظنون أنه يمكنهم النيل من السنة بواسطتها ، وساعدهم على ذلك جهل العامة من المسلمين .

ولا سبيل لردع هؤلاء إلَّا أن ينشط الخاصة من المسلمين فى نشر كنوز الدين الإسلامى على مسامع الأمة ، وعلى صفحات كتبها ، ليعلم القاصى والدانى أصالة الإسلام ، وليرتدع العدو عن غيِّه .

وليعلم المدافع أن الله معه يؤازره ويسدد خطاه ، فإن الله سبحانه قد بين أن كيد الكافرين إلى نحورهم مردود ، وأن ما لهم الذى ينفق فى سبيل الشيطان مفقود ، يقول سبحانه: ﴿ **إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون** ﴾ .

كما بين سبحانه أنه أعطى الحق خاصية الغلبة فقال سبحانه : ﴿ **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق** ﴾ وقال: ﴿ **فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض** ﴾ .

وعلى الأمة أن تعلم أن ما يفعله أعداء الإسلام من النيل من مصادر ديننا هو نوع من حروب الأمم بعضها لبعض .

واعلم أن هذا السلاح الذى حمله أعداء الإسلام على المسلمين قد أخذوه من نصوص ديننا ، فلقد ورد أن عمر بن الخطاب أرسل إلى ابن عباس فقال :

كيف تختلف هذه الأمة وكتابها واحد ، ونبيها واحد ، وقبلتها واحدة ؟ فقال ابن عباس : « يا أمير المؤمنين إنَّا أنزل علينا القرآن فقرأناه ، وعلمنا فيما نزل ، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرأون القرآن ، ولا يعرفون فيما نزل ، فيكون لكل قوم فيه رأى ، فإذا كان لكل قوم فيه رأى اختلفوا ، فإذا اختلفوا اقتتلوا » .

أرأيت كيف يدبر أعداء الإسلام للإسلام ؟ وكيف استطاعوا أن يستخدموا نصوص ديننا فى القضاء علينا ، فطبقوا علينا ما حذّرنا منه دْيننا .

لقد آن لأبناء الإسلام أن يشغلوا أنفسهم بالإسلام قراءة وبحثاً وتمحيصاً ، ثم تعليماً ونشراً بين المسلمين ، وهذا واجب على المسلمين عامة وعلى طلاب العلم والعلماء بخاصة ، وإلَّا فماذا هم قائلون حينما يسألهم الله العليم عن رسالتهم فى الحياة ؟ .

السنة النبوية والسنة الراشدة :

ولقد هالنى أن سمعت هذه الثقافة تُردد وسط الدارسين ، إذ وقف دارس يناقش ويصر أن السنة ما أخذ عن رسول الله فقط ، أما ما أخذ عن غيره من ولاة الأمر وإجماع الأمة فليس من السنة !! .

وفهمت أن هذه فرية من الثقافة الواردة إلى أبناء الإسلام من أعدائهم ، فإن من وسائلهم أن يشككوا فيما أثر عن الصحابة . بل فى أشخاص الصحابة ، وفى إجماع الأمة ، والقياس ، والاجتهاد . فهذه أمور هدمها يحقق شيئاً من أهدافهم .

وأذكر لك هنا قول الرسول ﷺ :« فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء المهديين ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة» (١) وقوله ﷺ لمعاذ:« فإن لم يكن فى سنة رسول الله ؟ قال : أجتهد رأيى ولا آلو ، فقال ﷺ:« الحمد لله الذى

---

(١) جزء من حديث العرباض بن سارية وقد تقدم بتمامه فى المقدمة ، وبينت هناك أنه أخرجه أبو داود والترمذى وأحمد .

وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله[1] »

وقال ابن مسعود : من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب محمد ﷺ ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، وأقومها هدياً ، وأحسنها حالاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم فى آثارهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم[2] .

وقال عمر بن عبد العزيز : سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سنناً الأخذ بها تصديق لكتاب الله ، واستكثار لطاعة الله ، وقوة على دين الله ، من اهتدى بها فهو مهتد ، ومن استنصر بها فهو منصور ، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين ، والله تعالى يقول:﴿ **نولّه ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا** ﴾[3] .

وقال الربيع : كنا يوماً عند الشافعى إذ جاء شيخ عليه جبة صوف وعمامة صوف ، وإزار صوف ، وفى يده عكاز . فقام الشافعى وسوّى عليه ثيابه ، واستوى جالساً ، وسلَّم الشيخ وجلس ، وأخذ الشافعى ينظر إلى الشيخ هيبة له ، إذ قال له الشيخ : أسأل ، قال : إيش الحجة فى دين الله ؟ قال : كتاب الله . قال : وماذا ؟ قال : وسنة رسول الله ﷺ . قال : وماذا ؟ قال : اتفاق الأمة . قال : من أين اتفاق الأمة من كتاب الله ؟ فتدبر الشافعى ساعة ، فقال للشافعى : قد أجَّلْتك ثلاثة أيام ولياليها ، فإن جئت بحجة من كتاب الله فى الاتفاق ، وإلَّا تب إلى الله ، فتغير لون الشافعى ، ثم إنه ذهب فلم يخرج إلَّا بعد ثلاثة أيام ولياليهن . قال : فخرج إلينا فى اليوم الثالث وقد انتفخ وجهه ويداه ورجلاه ، وهو مسقام فجلس فلم يكن بأسرع إذ جاء

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والدارمى وأحمد وفيه كلام كثير خلاصته أنه حديث حسن لغيره ، وقد ذكره ابن كثير فى مقدمة تفسيره ، وحكم على إسناده بأنه جيد . وراجع المدخل للبيهقى ص ٢٠٧ فقرة ٢٥٥ ، ٢٥٦ وص ١٢٧ فقرة ٧٣ .

(٢) الموافقات ٤ / ٥١ ، وشرح السنة كتاب الإيمان باب رد البدع والأهواء ١ / ٢١٤ .

(٣) أخرجه البيهقى عن مالك عنه كذا فى مفتاح الجنة ص ٢٤ . وذكره فى الموافقات ٤ / ٥٢ وقال : وكان مالك يعجبه كلامه جداً . أى أن مالكاً كان يعجبه كلام عمر بن عبد العزيز هذا جداً . وأخرجه الخطيب فى شرف أصحاب الحديث ص ٦ ، ٧ من كلام مالك وراجع فى حجية السنة الراشدة الموافقات ج ٤ ص ٤٨ .

الشيخ وجلس فقال : حاجتى ؟ فقال الشافعى : نعم ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم قال الله تعالى : ﴿ **ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا** ﴾ لا يصليه على خلاف المؤمنين إلَّا وهو فرض . فقال : صدقت . وقام فذهب . فلما ذهب الرجل قال الشافعى : قرأت القرآن كل يوم وليلة ثلاث مرات حتى وقعت عليه(٢) .

ومن هذا التفصيل تتضح لنا الحقائق التالية :

● السنة النبوية مصدر أساسى فى ديننا الإسلامى ، إذ هى مع القرآن أساس الإسلام ومنبعه ، وما عداهما من إجماع أو اجتهاد راجع إليهما .

● السنة وحي من الله تعالى إلى رسوله ﷺ ، وقد يأتى بها الوحى ابتداء ، وقد يجتهد ﷺ فإن أصاب أقره الوحى ، وإلَّا نبهه ، فلا يقع منه ﷺ إلَّا ما يتفق مع شرع الله تعالى ومراده .

● كان الوحى فى فترة النبوة يرقب الأمة كلها ، فأى حرام فعلوه ، أو واجب تركوه ظانين صواب ذلك نبه الوحيُ رسولَ الله إلى ذلك ، فعلّم الأمة الصواب .

● نص القرآن الكريم على وجوب العمل بالسنة ، وبيّن أن على الأمة أن تطيع رسول الله ﷺ فى كل أمر أو نهى ، وأن تقتدى به فيما يفعل أو يترك ، وهذا سبيل طاعتها لله تبارك وتعالى ، وبلوغها حبه ومغفرته عز وجل .

● السنة النبوية تبين القرآن الكريم ، فتفصل مجمله ، وتقيد مطلقه ، وتبين معانيه ، وهى البيان المحكم الصادق ، فإن الله عز وجل وَكَل بيان كتابه لنبيه ﷺ ، فقام بذلك على أكمل وجه .

● فهوم الصحابة فى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ أصح من فهوم غيرهم ، فهم أدرى الأمة بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، فما كان منهم علينا أن نأخذ به ، كما أمرنا بذلك رسولُ الله ﷺ .

● الإجماع والاجتهادأمور مقتبسة من الكتاب والسنة ، فاتباعهما اتباع للكتاب والسنة .

وفى ضوء هذه الحقائق تتضح مكانة السنة ومنزلتها فى الإسلام ، جعلنا الله من المؤمنين بكتابه ، المقتدين برسوله ﷺ .

---

(٢) اخرجه البيهقى ، كذا فى مفتاح الجنة ص ٢٤ .

السُّنَّة النَّبَوِيَّة
عَوَامِلُ دَيْمُومَتِهَا ، وَأُسُس صِيَانَتِهَا

- هدى الرسول صلى الله عليه وسلم فى تبليغ السنة .
- فصاحته وما أوتيه من جوامع الكلم صلى الله عليه وسلم .
- سمو تعاليم السنة .
- عدالة الصحابة وقوة ذاكرتهم وحبهم لدينهم .
- شرعية الإسناد ، والاهتمام به .

السُّنَّة النَّبَوِيَّة
عَوَامِلُ دَيمُومَتِهَا، وَأُسُس صِيَانَتِهَا

إذا توافر فى الشىء عوامل البقاء الذاتية ، وأسس صيانته من العوامل الخارجية ، فله أعلى درجات البقاء اللائق به . وهذا شأن السنة النبوية ، فلقد حظيت بخصائص فى ذاتها تورثها البقاء ، ووضع لها أهلها من الأسس ما يجعلها حصينة ضد الضياع أو النقصان ، وضد التغيير والتبديل ، حتى إنه ليتضح للباحث أن عوامل بقاء السنة وسلامتها هى :

أولاً : عوامل فى نفس السنة ، ويمكن تسميتها بـ « الذاتية » .

ثانياً : عوامل فى حَمَلة السنة ، ويمكن تسميتها بـ « الوقائية » .

أما العوامل الذاتية فتتمثل فى :

١ ـــ هَدْى النبى ﷺ فى تبليغ السنة .

٢ ـــ ما أوتيه ﷺ من البلاغة وجوامع الكلم .

٣ ـــ سمو تعاليم السنة .

وإليك تفصيل هذا الإجمال :

١ ــ هديه ﷺ فى تبليغ السنة :

الدارس لهديه ﷺ فى تبليغ السنة وتعليمها يجد أنه ﷺ نهج نهجاً يؤدى إلى حفظ السنة فى الصدور حفظاً سليماً ، دون اختلاط كلمة بكلمة ، ودون عجلة تؤدى إلى عدم السماع ، أو عدم الإدراك . يتضح هذا مما يلى :

١ ــ كان ﷺ لا يحدث أصحابه إلَّا إذا كانوا فى حالة يكون سماعهم لحديثه سماعاً تاماً ، يدلنا على هذا ما أخرجه البخارى عن جرير بن عبد الله أن النبى ﷺ قال له فى حجة الوداع:« استنصت الناس ... الحديث »(١) ، وفى هذا دليل على أنه ﷺ لا يحدثهم إلَّا إذا كانوا فى حالة إنصات وإصغاء .

وما كان الصحابة بأهل ضوضاء وفوضى ، وإنما حدث ذلك من كثرة الزحام ، ولعدم علمهم بأنه ﷺ سيحدثهم ، فلما أراد ﷺ أن يحدثهم أمر جريراً أن يطلب منهم الإنصات ، ودليلنا على أن الصحابة ما كانوا بأهل ضوضاء وفوضى ، وإنما كانوا أهل سكينة وهدوء ، ما روى عن أسامة بن شريك قال : « أتيت رسول الله ﷺ فإذا أصحابه عنده كأن على رؤوسهم الطير »(٢) .

٢ ــ كان ﷺ لا يحدث أصحابه إلَّا فى حالة شوق للسماع ، إذ ذاك آكد لرسوخ المسموع ، وضمان من الملل والسآمة . يدلنا على هذا ما أخرجه البخارى عن ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ قال : « كان النبى ﷺ يتخوَّلنا بالموعظة فى الأيام كراهة السآمة علينا »(٣) .

٣ ــ كان ﷺ إذا تكلم حرص على أن يُفهم كلامه ، فإذا كانت الكلمة تحتاج إعادة أعادها ، وقد يقولها ثالثة ، وذلك حتى يطمئن إلى أنها قد عُقلت عنه ، فكم من أمور يحتاج الذهن أن تكرر له حتى يستوعبها ، يدلنا على هذا ما أخرجه البخارى عن أنس ــ رضى الله عنه ــ « عن النبى ﷺ أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه ... الحديث »(٤) .

---

(١) أخرجه البخارى فى العلم باب الإنصات للعلماء ١ / ٢١٧ رقم ١٢١ . و « استنصت الناس » أى اطلب منهم أى ينصتوا ، والإنصات أبلغ من الاستماع ، إذ الاستماع عدم الكلام ، والإنصات عدم الكلام واشتغال الذهن بما يقال .

(٢) راجع الإلماع ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٣) راجع فتح البارى ١ / ١٦٢ .

(٤) راجع فتح البارى ١ / ١٨٨ .

أما إذا كان الحديث مما لا يحفظ بسهولة ، ويُخشى الخطأ فيه ، فإنه ﷺ حرص على كتابته ، ومن هنا نجد أنه ﷺ كتب الأحاديث المتضمنة لأنصبة الزكاة والواجب فيها ، وأحاديث الديات ، ومن راجع كتابه ﷺ إلى عمرو بن حزم اتضح له ذلك(١) .

٤ ــ كان ﷺ إذا تحدث يتحدث بتروٍّ ، لا يدخل الكلام بعضه فى بعض ، ولا يسرده سرداً ، وهذا أدعى لسلامة المسموع ، وحفظ السامع ، وفهم الحديث . يدلنا على هذا ما أخرجه أبو داود عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت :«كان كلام رسول الله ﷺ كلاماً فصلاً(٢) ، يفهمه كل من سمعه » .

٥ ــ كان ﷺ أحياناً يقدم الفائدة فى صورة سؤال ، مما يجعل السامع يحاول الوصول إلى الجواب ، وهذا يجذب انتباهه ، ويشوقه ، فحينما يجيب ﷺ يقع حديثه فى القلب كل موقع ، ويرسخ فى الذهن أيما رسوخ ، يدلنا على هذا ما أخرجه البخارى عن ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنها مثل المسلم ، فحدثونى ما هى ؟ فوقع الناس فى شجر البوادى . قال عبد الله : ووقع فى نفسى أنها النخلة فاستحييت ، ثم قالوا : ما هى يا رسول الله ؟ قال : هى النخلة »(٣) .

٦ ــ استعمل ﷺ المَثَل من باب تقريب المراد . وإيصاله إلى الذهن ، كى يفهم ويعقل ، فمثّل لهم البعيد بالقريب ؛ والمجهول بالمعلوم ، والمعنوى بالمحسوس . وفى ذلك من التقريب ما فيه فضلاً عن أنه يصبح قرينة تذكّر بالجواب ، لأنه مُثِّلَ بمعلوم ؛ فمثّل ﷺ الجليس الصالح بحامل المسك ، والجليس السوء بنافخ الكير ، وفى السنة كثير من ضرب المثل منها :

---

(١) كتابه ﷺ إلى عمرو بن حزم فى الفرائض والسنن والديات أخرجه كثير من أئمة الحديث فى كتبهم ، راجع الأموال لأبى عبيد ص ٤٤٧ وغيرها والسنن الكبرى للبيهقى جـ ٤ ص ٨٥ ــ ٩٢ وسنن الدارقطنى ٢ / ١١٦ ، وراجع مكاتيب الرسول ﷺ لحسين على الأحمدى ص ١٩٩ .

(٢) أى واضحاً ظاهراً .

(٣) فتح البارى ١ / ١٤٥ .

« مثلى ومثل الأنبياء من قبلى ... الحديث » .

و « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم ... الحديث » .

و « مثل البخيل والمنفق ... الحديث » .

و « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن ... الحديث »[1] .

وربما كان الجواب بضرب المثل ، من ذلك أنه ﷺ لما سأله عمر عن القبلة للصائم قال : « أرأيت لو تمضمضت بماء ثم مججته ؟ » وقال لمن سألته عن الحج عن أبيها . « أرأيت لو كان على أبيك دين أكنت قاضيته ؟ .. » .

وذكر ابن القيم كثيراً من الأمثلة التى ذكرها ﷺ ثم قال : فهذه وأمثالها من الأمثال التى ضربها رسول الله ﷺ لتقريب المراد ، وتفهيم المعنى ، وإيصاله إلى ذهن السامع ، وإحضاره فى نفسه بصورة المثل الذى مثل به ، فإنه قد يكون أقرب إلى تعقله وفهمه وضبطه ، واستحضاره له باستحضار نظيره ، فإن النفس آنس بالنظائر والأشباه الأنس التام ، وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظير ، ففى الأمثال من تأنيس النفس وسرعة قبولها ، وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق أمر لا يجحده أحد ولا ينكره ، وكلما ظهرت لها الأمثال ازداد المعنى ظهوراً ووضوحاً ، فالأمثال شواهد المعنى المراد ، ومزكية له ، فهى ﴿ **كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه** ﴾ وهى خاصة العقل ولبه وثمرته[2] ا هـ .

٢ ــ ما أوتيه ﷺ من البلاغة وجوامع الكلم :

اصطفى الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أجمل الخلق بياناً وفصاحة ، وبلاغة وأدباً شهد لذلك أصحابه عامة ، ومنصفو أعدائه ، وسنته ﷺ بين أيدينا شاهدة بذلك ، فهى فى أعلى درجات البلاغة والفصاحة .

---

(١) وراجع الفتح الكبير فى ضم الزيادة إلى الجامع الصغير ٣ / ١٢٨ ــ ١٣٤ . وراجع فهارس مسند الحميدى كتاب الأمثال ص ٣٥ من الفهارس التى بالجزء الثانى . وراجع أعلام الموقعين جـ ١ ص ٢٣٠ــ ٢٤٠ .

(٢) أعلام الموقعين ١ / ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

واختصه الله سبحانه وتعالى بجوامع الكلم ، فيعبر ﷺ عن المعانى الكثيرة باللفظ أو اللفظين ، وأى تعبير يساوى قوله ﷺ: « إن الدين النصيحة »(١) ؟ حتى قال الخطابى : ليس فى الكلام كلمة مفردة تستوفى بها العبارة عن معنى هذه الكلمة(٢) .

وفى حديث له ﷺ يتحدث فيه عما اختصه الله به يقول : « فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض طهوراً ومسجداً ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بى النبيون »(٣) .

ولهذين الأمرين ــ البلاغة وجوامع الكلم ــ ما لهما فى حفظ السنة ، أما البلاغة فجعلت أحاديثه ﷺ محببة إلى نفس العرب ، إذ هم أصحاب الفصاحة ، الذين يعقدون أسواق الأدب يتبارون فى البيان ، وأما جوامع الكلم فكان سبيل التعبير عن المعانى الكثيرة بألفاظ قليلة ، وتعبيرات وجيزة . وهذا أيسر للحفظ ، وأسهل للاستيعاب .

يقول ابن القيم : كان ﷺ أفصح خلق الله ، وأعذبهم كلاماً ، وأسرعهم أداء ، وأحلاهم منطقاً . حتى إن كلامه يأخذ بالقلوب ، ويسبى الأرواح . ويشهد له بذلك أعداؤه . وكان إذا تكلم تكلم بكلام مفصل مبين ، يعده العاد ، ليس بهذر مسرع لايحفظ ، ولا منقطع تخلله السكتات بين أفراد الكلام(٤) أ . هـ .

٣ ــ سمو تعاليم السنة :

وجدت الأمة فى السنة النبوية نظاماً يفوق كل نظام ، وأسلوب حياة يسمو على كل الأنظمة . وماذا بعد: « لا ضرر ولا ضرار »(٥) ؟ وماذا

---

(١) أخرجه مسلم وأبو داود وأحمد والنسائى عن تميم الدارى . وأخرجه البخارى تعليقاً ١ / ١٣٧ فتح البارى .

(٢) فتح البارى ١ / ١٣٨ .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه ٢ / ١٥٦ طبعة الشعب بشرح النووى .

(٤) زاد المعاد ١ / ٦٣ .

(٥) أخرجه أحمد ــ فى مسنده ــ وابن ماجه كلاهما عن ابن عباس .

بعد : « ليس منا من لم يجل كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقه »(١) ؟ . لقد أخذت السنة على الصحابة شغاف قلوبهم ، إذ نقلتهم من حال إلى حال ، من مبدأ أكل القوى الضعيف إلى:« والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه »(٢) . من عالم التفاخر بالآباء والأجداد إلى عالم:« كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب »(٣) . نقلتهم إلى حياة يسودها السمو الخلقى ، الذى يسمو على كل رأى وتفكير مهما كان ، ويوافق الفطر ، بل وتسعد به فى كل زمان ومكان ، مما جعلهم فى أعلى درجات الحب للسنة ، ينفذون كل تعاليمها ، ويحرصون على معرفة كل نصوصها ، مما كان سبباً فى الحفاظ على السنة ، فإن تحويلها إلى واقع عملى جعلها فى أعلى درجات الحفظ ، وحبهم لها جعلها فى أعلى درجات تطلاب أهلها لها . وسيأتى مزيد بيان لذلك ــ إن شاء الله تعالى ــ فى الحديث عن الصحابة وحبهم لدينهم .

وجاء مَنْ بعد الصحابة فساروا على نهج الصحابة فى الحفاظ على السنة ، فحفظوها فى صدورهم ، ودوّنوها فى كتبهم ، وطبقوها فى سلوكهم ، فصينت من كل زيف ، ووشحت بكل وشاح جميل ، من شرح غريب ، وتعريف بالرواة ، ووضع قواعد المنهج الذين يسيرون عليه . كل ذلك من منطلق تقديرهم للسنة ، ومعرفتهم بمنزلتها .

ولقد بلغ من سمو السنة أنها جذبت أنظار أعداء الإسلام ، فراحوا يراقبونها وما جاءت به . فها هو ذا مشرك ينطق بشمول السنة لكل أمور الحياة ، معترفاً على نفسه ومن على شاكلته بأنهم يحرصون على معرفة تعاليم السنة . فعن سلمان « أنه قيل له قد علمكم نبيكم ﷺ كل شيء حتى الخراءة ؟ قال : قال أجل لقد نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول ، أو أن نستنجى باليمين ، أو أن نستنجى بأقل من ثلاثة أحجار ، أو أن نستنجى برجيعَ أو بعظم »(٤) . وانظر

---

(١) أخرجه أحمد ــ فى مسنده ــ والحاكم فى المستدرك ــ عن عبادة بن الصامت .
(٢) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى وأحمد عن أبى هريرة .
(٣) أخرجه البزار عن حذيفة . وله شواهد راجع الدر المنثور ٦ / ٩٨ ، ٩٩ .
(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه ١ / ٥٤٦ طبعة الشعب بشرح النووى .

إلى قول السائل:« لقد علمكم نبيكم كل شيء » تجد أنها تدل على تتبع هؤلاء لأمور السنة ، واعترافهم ــ مع أهلها ــ بشمولها لكل أمور الحياة .

وأما العوامل الوقائية فتتمثل فى :

١ ــ ما كان عليه الصحابة من عدالة ، وسعة حفظ ، وحب للإسلام .

٢ ــ شرعية الإسناد ، والاهتمام به اهتماماً منقطع النظير .

وإليك التفصيل :

الصحـــابة :

الصحابى : هو من لقى النبى ﷺ مؤمناً به ، ومات على الإسلام[١] . فكل من لقى النبى ﷺ ولو لحظة حال كونه مؤمناً ، ومات على الإسلام فهو صحابى ، سواء لقيه وهو صغير أو كبير ، وسواء روى عنه أم لم يرو عنه .

قال البخارى : ومن صحب النبى ﷺ ، ورآه من المسلمين فهو من أصحابه[٢] . هذا هو المشهور بين أهل الحديث ، فإنهم لشرف منزلة النبى ﷺ أعطوا كل من رآه حكم الصحبة ، إذ رؤيته ﷺ شرف ما بعده شرف .

وعدد الصحابة الذين رووا عن رسول الله ﷺ فوق المائة ألف ، ما بين رجل وامرأة ، وصغير وكبير ، وحر وعبد ، ومن روى الكثير ، ومن روى القليل حتى إن منهم من يروى الحديث الواحد عنه ﷺ ، إما لقلة مجالسته ، أو لصغر سنه .

قال أبو زرعة الرازى : توفى النبى ﷺ ومن رآه وسمع منه زيادة على مائة ألف إنسان ، من رجل وامرأة ، كلهم قد روى عنه سماعاً أو رؤية . قال ابن فتحون ــ بعد أن ذكر ذلك ــ أجاب أبو زرعة بهذا سؤال من سأله عن الرواة خاصة فكيف بغيرهم[٣] ؟ .

---

(١) وفى تعريف الصحابى أقوال أخرى راجع فتح المغيث للعراقى ٤ / ٢٩ .

(٢) الكفاية ص ٩٩ .

(٣) راجع الإصابة ١ / ٣ تحقيق البجاوى .

وقال أبو زرعة أيضاً : قبض رسول الله ﷺ عن مائة ألف وأربعة عشر ألفاً من الصحابة ، ممن روى عنه ، وسمع منه(١) .

وهذه الكثرة الكثيرة بماجبلوا عليه من قوة حفظ ، وتوقد قريحة ، وما حباهم الله به من حب لدينهم ، وثقة فى نقل أخبارهم ، كانوا أيما عامل من عوامل حفظ السنة .

فعدالتهم جميعاً : أدت إلى كثرة حَمَلة السنة ، وإلى اطمئنان التابعين ، وخفة مؤونة تحمل السنة ، إذ المدرسة التى تخرجوا فيها ــ بفضل عدالة الصحابة ــ واسعة موثوق بها . ولولا عدالة كل الصحابة ، لكان على التابعين أن يفحصوا ويدققوا ، ولقل عدد من يروون عنه ، وكل ذلك بفضل الله لم يكن .

وسعة حفظهم : أدت إلى كثرة حُفّاظ السنة ، والمحافظين على نصوصها ، ولذلك دوره فى تيسير الأمر على التابعين ، وفى حفظ السنة .

وحبهم لدينهم : كان سر إيتاء العاملين السابقين ثمارهما ، إذ لو كانوا عدولاً حفّاظاً لكنهم غير مهتمين بالسنة ما حفظوا ، لكنهم لما كانوا محبين حريصين عليها ، أدى ذلك إلى الحفظ والحفاظ ، خاصة أنهم عدول أثبات . وإليك تفصيل القول فى صفات الصحابة هذه ــ عدالتهم ، سعة حفظهم ، حبهم لدينهم .

عدالة الصحابة :

اختار الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ صحابة أجلاء ، فى أعلا درجات الطهر والنقاء ، عقيدتهم سليمة ، وخلقهم قويم ، يتبعون من القرآن ما نزل ، ويمتثلون عن نبيهم ما بلَّغ ، يحرصون على الطاعة حرصاً تاماً ، ويبتعدون عن الذنب كل ابتعاد .

ومن ثم أثنى عليهم ربنا سبحانه وتعالى فى غير ما موضع من كتابه ، وعدّلهم وزكّاهم ، وتعديل الله سبحانه فوق كل تعديل ، فهو للظاهر والباطن ، للعلن والسر .

---

(١) راجع فتح المغيث ٤ / ٣٩ .

فقال سبحانه :

﴿ محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار ، رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ ، فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾(١) .

وقال سبحانه :

﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون . والذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾(٢) .

وقال سبحانه :

﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ... الآية ﴾(٣) .

وقال سبحانه :

﴿ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم ﴾(٤) .

---

(١) سورة الفتح آية ٢٩ .
(٢) سورة الحشر آية ٨ ، ٩ .
(٣) سورة التوبة آية ١٠٠ .
(٤) سورة الأنفال آية ٧٤ .

وقال ﷺ :

« خير الناس قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ... الحديث »[1] .

وقال :

« الله الله فى أصحابى ، لا تتخذوهم غرضاً . فمن أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه »[2] .

وقال :

« لا تسبوا أصحابى ، فوالذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ، ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه »[3] .

ومن هذه النصوص يتضح قدر الصحابة ، فالله سبحانه وتعالى يخبر عن صفاتهم وجزائهم وأنهم يبتغون فضل الله ورضوانه ، وينصرون دين الله مهما كلفهم ذلك ، وأنهم هجروا البلاد والأهل ، وآوى بعضهم بعضاً ، كل ذلك فى الله سبحانه وتعالى ، فكان جزاء وفاقاً أن أخبر سبحانه برضوانه عليهم ، وأنهم من أهل الفلاح ، وأهل جنته ، وأنهم هم المؤمنون حقاً .

والرسول ﷺ يشهد لهم بأنهم خير قوم ، وخير ناس ، ويبين أن أذاهم أذى له ، فيحذِّر الأمة من بُغْضهم ، أو فعل ما يؤذيهم ولو بعد مماتهم ، فإن ذلك مما يترتب عليه عقاب الله ، كما بين ﷺ من صفاتهم أنهم أنفقوا فى وقت الشدة ، وجادوا بما يملكون ، وتقبل الله منهم بسبب إخلاصهم فهم ـــ رضوان الله عليهم ـــ مخلصون مقبولون .

يقول عبد الله بن مسعود : إن الله نظر فى قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته ، ثم نظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء

(١) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود والنسائى عن عمران بن حصين . والبخارى ومسلم والترمذى عن عبد الله بن مسعود .

(٢) أخرجه الترمذى وابن حبان من حديث عبد الله بن مغفل .

(٣) أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وأحمد عن أبى سعيد .

نبيه يقاتلون على دينه . فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رأوا سيئاً فهو عند الله سيىء (١) .

حالهم :

وحالهم — رضوان الله عليهم — يشهد لهم بالعدالة ، فهم صادقون فى إيمانهم ، ممتثلون لشرع ربهم .

قال الخطيب البغدادى : على أنه لو لم يرد من الله عز وجل ورسوله فيهم شىء مما ذكرناه ، لأوجبت الحال التى كانوا عليها ؛ من الهجرة والجهاد ، والنصرة وبذل المهج والأموال ، وقتل الآباء والأولاد ، والمناصحة فى الدين ، وقوة الإيمان واليقين ، القطع على عدالتهم ، والاعتقاد لنزاهتهم ، وأنهم أفضل من جميع المعدَّلين والمزكِّين الذى يجيئون من بعدهم أبد الآبدين(٢) .

وأعداؤهم يشهدون بذلك :

وإذا كانت النصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية قد أثبتت عدالة الصحابة ، وأحوالهم تفيد وتثبت ذلك فإنى أسوق شهادة أحد أعدائهم من باب زيادة الخير .

قال ابن كثير — رحمه الله تعالى — وروى أحمد بن مروان المالكى فى المجالسة : قال : حدثنا أبو إسماعيل الترمذى قال : حدثنا أبو معاوية بن عمرو . عن أبى إسحاق قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يثبت لهم العدو فواق ناقة (٣) عند اللقاء . فقال هرقل — وهو على أنطاكية لما قدمت منهزمة الروم — ويلكم؟ أخبرونى عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا بشراً مثلكم ؟ فقالوا بلى . قال : أفأنتم أكثر أم هم؟ قالوا بل نحن أكثر منهم أضعافاً فى كل موطن . قال : فما بالكم تنهزمون ؟ قال شيخ من عظمائهم : من أجل أنهم يقومون الليل ، ويصومون النهار ، ويوفون بالعهد ، ويأمرون

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ٣٧٩/١ واللفظ له وأخرجه البغوى فى شرح السنة كتاب الإيمان باب رد البدع والأهواء ٢١٤/١ ، ٢١٥ ، وذكره فى مجمع الزوائد ١٧٧/١ ، ١٧٨ وعزاه لأحمد والبزار والطبرانى فى الكبير ، وقال : ورجاله موثقون . وقد أخرج الحاكم الجزء الأخير من الحديث من طريق أحمد بن حنبل أخرجه فى معرفة الصحابة من المستدرك باب يتجلى الله للناس عامة .. إلخ ج ٣ ص ٧٨ وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبى .

(٢) الكفاية ص ٩٦ .

(٣) قدر ما بين الحلبتين .

بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويتناصفون بينهم[1] ومن أجل أننا نشرب الخمر ، ونزنى ، ونركب الحرام ، وننقض العهد ، ونغصب ونظلم ، ونأمر بالسخط ، وننهى عما يرضى الله ، ونفسد فى الأرض . فقال : أنت صدقتنى[2] .

وليس هذا هو الشاهد الوحيد الذى يشهد للصحابة وهو عدو لهم ، وإنما شهد كثير من أعدائهم لهم بأنهم يلتزمون أمور دينهم نصاً وروحاً ، وإن أردت المزيد من ذلك . فراجع كتب التاريخ[3] ، والسيرة[4] ، والمناقب والفضائل من كتب السنة[5] ففيها الكثير والكثير مما يشهد للصحابة بالمنزلة الرفيعة ، وتمام التمسك بالدين .

والإجماع :

وأيضاً انعقد إجماع — من يعتد بإجماعهم — على أن الصحابة كلهم عدول ، فمذهب أهل السنة والجماعة على أن الصحابة كلهم عدول ، كيف لا ؟ وقد عدلهم الله ورسوله ، وأحوالهم تنطق بعدالتهم ؟! .

ولقد استنبط الإمام مالك — رحمه الله تعالى — من قول الله سبحانه : ﴿ **والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان** ... ﴾[6] استنبط منها أن من سب الصحابة لاحظّ له فى الفيء[7] .

وقال أبو زرعة الرازى : إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق ، وذلك أن الرسول ﷺ حق ، والقرآن حق ، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله عليه السلام . وهؤلاء يريدون أن يجرحوا شهودنا ، ليبطلوا الكتاب والسنة ، والجرح بهم أولى وهم زنادقة[8] .

---

(١) أى ينصفون المظلوم والضعيف .

(٢) البداية والنهاية ٧ / ١٧ .

(٣) كالبداية والنهاية ، وتاريخ الطبرى ، وتاريخ ابن الأثير « الكامل » .

(٤) كسيرة ابن هشام ، والإصابة لابن حجر ، وحياة الصحابة للكندهلوى خاصة ٣ / ٧٧٠ ، وأسد الغابة .

(٥) كجامع الأصول لابن الأثير ، ومجمع الزوائد للهيثمى .

(٦) سورة الحشر آية ١٠ .

(٧) الموافقات ٣ / ٢٤٦ .

(٨) الكفاية ص ٩٧ والإصابة ١ / ١١ .

قوة ذاكرتهم :

المتتبع لحياة العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام ، يتضح له أن العرب كانوا أصحاب ذاكرة قوية ، يذهبون إلى أسواق الأدب ، فيلقى الشاعر قصيدته مرة واحدة فتُحفظ ، بل وتُنْقد .

وقف الشاعر فأنشد قصيدة ، وأنشد خصْمُه قصيدة ، فحكم الحكم لأحدهما فعاتبه الآخر فرد عليه بقوله : لقد قلت :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً ما من صداقته بُدُّ

أما قلت :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً ما من مداراته بد ؟!

وهذا يوضح أن الحكم قد حفظ ، وأتى بالصواب .

وأكثر من هذا يتضح لمن درس أحوال العرب الفكرية ، ولذا قال ﷺ فى وصف هذه الأمة « أناجيلهم فى صدورهم »(١) أى صحفها صدورها ، فكانوا يعتمدون على صدورهم فى حفظ أنسابهم ومفاخرهم وأشعارهم وكل ما لهم . فها هو ذا ابن عباس يحفظ فى سمعة واحدة قصيدة عمر بن أبى ربيعة التى مطلعها :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجر(٢)

وها هو ذا قتادة يقول : ما سمعت أذناى شيئاً قط إلَّا وعاه قلبى (٣) .

وها هو ذا ابن شهاب الزهرى يقول : إنى لأمر بالبقيع فأسد آذانى مخافة أن يدخل فيها شيء من الخنا ، فوالله ما دخل أذنى شيء قط فنسيته (٤) .

ولقد انتفع الصحابة — وأيضاً من بعدهم — بهذه الملكة — ملكة الحفظ — فى خدمة الكتاب والسنة ، فكانت عاملاً من عوامل الحفاظ على السنة ، إذ سجلوها فى صدورهم ، وتناقلوها فيما بينهم .

---

(١) أخرجه الزبير بن بكار فى أخبار المدينة ، وأبو نعيم فى دلائل النبوة عن ابن مسعود . كذا فى الدر المنثور ج ٣ ص ١٣٢ . وذكره فى فتح البارى ج ١ ص ٢٥ وراجع دلائل النبوة لأبى نعيم ص ٣٠ ، ٣١ الفضيلة الرابعة .

(٢) جامع بيان العلم ١ / ٨٣ .

(٣) الإلماع ص ٢٢ . وعلل الحديث للترمذى فى آخر جامعه ١٠ / ٤٩٣ تحفة الأحوذى .

(٤) جامع بيان العلم ١ / ٨٣ .

واقترن حفظ الصحابة بالفهم الثاقب ، والاستنباط الدقيق من النص ، بل من النصوص ، ولو كانت غير متعاقبة ، فهاهوذا على بن أبى طالب ــ كرم الله وجهه ــ يستنبط من قول الله تعالى :

﴿ **والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين** ﴾[1] .

وقوله سبحانه :

﴿ **وحمله وفصاله ثلاثون شهراً** ﴾ [2]ــ على رغم عدم تعاقب النصين ــ يستنبط أن مدة الحمل قد تكون ستة أشهر .

فعن أبى الأسود الديلى[3] أن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ رفعت إليه امرأة ولدت لستة أشهر[4] ، فهمّ برجمها ، فبلغ ذلك عليًّا ، فقال : ليس عليها رجم ، قال الله تعالى : ﴿ **والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين** ﴾ ، وستة أشهر ، فذلك ثلاثون شهراً .

قلت : عنى الآية ﴿ **وحمله وفصاله ثلاثون شهراً** ﴾ وستة أشهر مدة الحمل ، فذلك ثلاثون شهراً ، وهى مذكورة فى رواية البيهقى[5] .

ولقد أثبت الواقع صدق استنباط علىٍّ ــ كرم الله وجهه ــ هذا ، فولدت المرأة المرة الثانية لستة أشهر أيضاً .

وورد هذا الاستنباط عن ابن عباس أيضاً .

فعن فايد بن عباس قال : أُتى عثمان بامرأة ولدت فى ستة أشهر ، فأمر برجمها فقال ابن عباس إنها إن تخاصمك بكتاب الله تخصمك يقول الله: ﴿ **والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين** ﴾ ويقول سبحانه فى آية أخرى:﴿ **وحمله وفصاله ثلاثون شهراً** ﴾ فقد حملته ستة أشهر ، فهى ترضعه لكم حولين كاملين ، فدعا بها عثمان فخلى سبيلها[6] .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٣٣ .

(٢) سورة الأحقاف آية ١٥ .

(٣) أو « الدؤلى » .

(٤) أى من دخول زوجها بها .

(٥ ، ٦) راجع الدر المنثور ١ / ٢٨٨ والسنن الكبرى للبيهقى ٧ / ٤٤٢ وتفسير الطبرى ٤٩١/٢

وكتب الفقه تشرق نوراً باستنباط الصحابة ، واجتهاداتهم فى فهم النص ، وكذلك الكتب التى اهتمت بالآثار ، كمصنف عبد الرزاق ، ومصنف ابن أبى شيبة ، وسنن البيهقى .

حبهم لدينهم وحرصهم عليه :

بلغ حب الصحابة لدينهم ، وحرصهم عليه ، درجة استهانوا معها بالنفس والنفيس ، إزاء نصرة هذا االدين ، والحفاظ عليه . فزادوا عن حياضه بالمال والولد وبالنفس ، حتى كان الابن والأب يتنازعان فيمن يخرج إلى الحرب ومن يبقى فى الأهل ، فكان الوالد يحرص على أن يكون هو الذاهب إلى ساحة الوغى ، وما كان الابن بأقل منه شأناً . وما قصة جابر مع أبيه عن الأذهان ببعيدة ، إذ تسابق كل فى الذهاب إلى المعركة ، واستغل الأب أبوته وكبر سنه مبرراً لذهابه هو ، خشية أن يموت على فراشه ، ويحرم من الشهادة فى سبيل الله .

فإذا اتضح ذلك ــ فداؤهم لدينهم بأنفسهم ــ اتضح مدى حرصهم على حفظ نصوص هذا الدين ، والذى وصل إلى درجة التفرغ الكامل لحفظ ما يقوله رسول الله ﷺ . وأن يكون دعاؤهم فى الأوقات التى يرجى فيها الإجابة أو يتيقن أن يعلمهم الله دينهم ، وأن يرزقهم الفقه فيه . وهذه نماذج من حرصهم على تعلم أمور دينهم :

عن أم سلمة ــ رضى الله عنها ــ قالت : دخل علىّ رسول الله ﷺ ذات يوم بعد العصر ، فصلى ركعتين ، فقلت : يا رسول الله ، صليت صلاة لم أكن أراك تصليها ؟ ... الحديث[1] ، وفى هذا بيان لما كانوا عليه من دقة مراقبة لتصرفاته ﷺ ليحصل لهم تمام الاقتداء .

---

(١) أخرجه مسلم فى المسافرين باب معرفة الركعتين اللتين كان يصليهماالنبى ﷺ بعد العصر ١ / ٥٧١ رقم ٢٩٧ / ٨٣٤ . وأخرجه البخارى فى السهو باب إذا كلم وهو يصلى فأشار بيده واستمع ٣ / ١٠٥ رقم ١٢٣٣ .

وعن أبى أيوب الأنصارى ـــ رضى الله عنه ـــ قال : نزل علىّ رسول الله ﷺ شهراً ، فنقَّبت فى عمله كله . فرأيته إذا زالت الشمس ـــ أو زاغت الشمس ـــ أو كما قال ، إن كان فى يده عمل الدنيا رفضه ، وإن كان نائماً فكأنما يوقَّظ له ، فيقوم فيغتسل أو يتوضأ ، فيصلى ثم يركع أربع ركعات يتمهن ويحسنهن ، ويتمكن فيهن . فلما أراد أن ينطلق(١) قلت : يا رسول الله مكثت عندى شهراً ، ووددت أنك مكثت أكثر من ذلك ، فنقبت فى عملك كله ، فرأيتك إذا زالت الشمس ـــ أو زاغت ـــ فإن كان فى يدك عمل الدنيا رفضته ، وأخذت فى الصلاة ؟ فقال رسول الله ﷺ : إن أبواب السماء يفتحن فى تلك الساعة ، فلا يرتجن(٢) أبواب السماء وأبواب الجنة حتى تصلى هذه الصلاة ، فأحببت أن يصعد إلى ربى فى تلك الساعات خير ، وأن يرفع عملى فى أول عمل العابدين(٣) .

وفى قول أبى أيوب : فنقَّبت فى عمله كله ، دليل على مدى دقتهم فى مراقبة كل ما يصدر عنه ﷺ ، وما استفاده أبو أيوب من تنقيبه هذا ، أخبر به رسول الله ﷺ من أنه يحرص على صلاة أربع ركعات فى وقت زوال الشمس ، فأقره رسول الله ﷺ ، وبين له السر فى الحرص على هذه الصلاة .

وعن عمر بن الخطاب ـــ رضى الله عنه ـــ قال : كنت أنا وجار لى من الأنصار فى بَنِى أمية بن زيد ـــ وهى من عوالى المدينة ـــ وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ ينزل يوماً ، وأنزل يوماً ، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحى وغيره ، وإذا نزل فعل مثل ذلك ... الحديث(٤) .

وعن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قلت يا رسول الله ، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ : لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألنى عن هذا الحديث أحد أول منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث ... الحديث(٥) .

---

(١) أى يترك بيت أبى أيوب إلى بيته ﷺ الذى بنى له بجوار المسجد .
(٢) يغلقن.　　　(٣) أخرجه الحاكم فى المستدرك ٣ / ٤٦١ .
(٤) أخرجه البخارى فى العلم باب التناوب فى العلم ١ / ١٨٥ .
(٥) أخرجه البخارى فى العلم باب الحرص على الحديث ١ / ١٩٣ .

فالرسول ﷺ يعلم أنه سوف يسأله أصحابه عن هذا الأمر ــ الشفاعة ــ نظراً لحرصهم على التعلم ، ويترجح عنده أن يسبقهم أبو هريرة بهذا السؤال . وتأمل قوله ﷺ:« أحد أول منك » أى أن كثيراً عنده هذا السؤال ، بيد أنك ستتقدمهم به ، وهذا مدح للصحابة عامة ، ولأبى هريرة خاصة ، ولا تظنن أن هذا مدح لأبى هريرة خاصة ، فإنه لم يقل لا يسألنى أحد غيرك ، وإنما قال:« أول منك » ففى ذلك إثبات لزيادة حرص أبى هريرة مع إثبات الحرص لكل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

وعن أبى ذر قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن لا يغلبونا على ثلاث : أن نأمر بالمعروف ، وننهى عن المنكر ، ونعلم الناس السنن(١) .

ولسوف يظهر مدى امتثال الصحابة لهذا الحديث إذا تذكرنا قول أبى ذر ــ راوى هذا الحديث ــ : لو وضعتم الصمصامة(٢) على هذه ــ وأشار إلى قفاه ــ ثم ظننت أنى أنفذ كلمة سمعتها من رسول الله ﷺ قبل أن تجيزوا علىّ لأنفذتها(٣) .

هذا ، ولم تكن هذه الحال مقصورة على الرجال فحسب ، وإنما شاركهم ، بل سابقهم فيها النساء ، حتى وصل الأمر أن شكون لرسول الله ﷺ قلة الفُرصة لهن فى التعليم ، راجين إتاحتها . يصور هذا ما رواه أبو سعيد الخدرى : قالت النساء للنبى ﷺ : غلبنا عليك الرجال ، فاجعل لنا يوماً من نفسك . فوعدهن يوماً ، لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن ... الحديث(٤) .

ولقد كانت الصحابيات على قدر وافر من فهم الدين ، وحب الفقه فيه . حتى قالت أم المؤمنين عائشة ــ رضى الله عنها ــ :« نعم النساء نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين »(٥) .

---

(١) أخرجه الدارمى فى المقدمة باب البلاغ عن رسول الله ﷺ وتعليم السنن ١ / ١١١ .

(٢) الصمصامة ــ بمهملتين الأولى مفتوحة ــ هو السيف الصارم الذى لا ينثنى ، وقيل الذى له حد واحد .

(٣) أخرجه الدارمى فى الموضع السابق ص ١١٢ وراجع فتح البارى ١ / ١٦١ ففيه زيادة فى قصة أبى ذر هذا ، أما سنن الدارمى ففيها زيادة خير فى هذا الموضوع عموماً .

(٤) أخرجه البخارى فى العلم باب هل يُجعل للنساء يوم على حدة فى العلم ؟ ١ / ١٩٥ .

(٥) أخرجه مسلم ١ / ٦٢٩ .

وقصة خولة بنت ثعلبة وشكواها لله سبحانه وتعالى قائلة:« أكل شبابى ، ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبر سنى ، وانقطع ولدى ، ظاهر منى !! اللهم إنى أشكو إليك » تدل على أنهن كن يفهمن روح الإسلام ، خاصة أن زوجها ـــ أوس بن الصامت ـــ بعد أن قال لها:أنت علىّ كظهر أمى ، فارقها ساعة ثم رجع ، فأرادها عن نفسها ، فقالت : كلا ـــ والذى نفس خولة بيده ـــ لا تصل إلىّ ، وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا . وهذا يدل على دقة فهمها للإسلام ، وأن هذه الكلمة التى أصبحت فيما بعد صيغة الظهار ـــ قد تعطى الحياة الزوجية حكماً آخر ، فليراجع فى ذلك سيدنا المصطفى ﷺ ، فهو الموحى إليه من ربه(١) .

كما أنه لم تكن هذه الحال قصراً على الموجودين مع الرسول ﷺ فى المدينة ، بل إن أهالى الأماكن البعيدة عن المدينة شاركوا المدنيين شرف الحرص على معرفة وتبليغ السنة ، فكانوا يرسلون رسلهم إلى الرسول ﷺ لينقلوا لهم عنه ما نزل من شرع الله ، وامتثالاً لروح الإسلام كان الوفد يبلغ ما عَلِمه إلى كل من يمر عليهم . يوضح ذلك ما روى عمرو بن سلمة قال : كنا زمن الفتح يمرون بنا فنقرأ ويقرءون ، فنأخذ منهم العلم ، فذهب أبى بإسلام قومه إلى رسول الله ﷺ فقال : يؤمكم أقرؤكم لكتاب الله ، فقدمونى بين أيديهم ... الحديث(٢) وفى رواية أخرى عنه أيضاً قال : كنا بحاضر يمر بنا الناس إذا أتوا النبى ﷺ ، فكانوا إذا رجعوا مروا بنا فأخبرونا أن رسول الله ﷺ قال كذا وكذا ، وكنت غلاماً حافظاً ، فحفظت من ذلك قرآناً كثيراً ، فانطلق أبى وافداً إلى رسول الله ﷺ ... الحديث(٣) . ومن هنا نعلم أن الوفود بلّغت ، وأن من سمع كان حريصاً على الحفظ فحفظ ، وإن تفاوتوا فى عدد مرات الجلوس للتعلم .

ويظهر للمتأمل أن هذه الوفود كانت فى منتهى النضج الفكرى . فكانت

---

(١) راجع فى قصة خولة باب الظهار من كتب السنة خاصة البخارى وأبى داود والمستدرك .

(٢) أخرجه ابن الجعد فى مسنده ج ١ ص ٥٦٣ رقم ١٢٢٩ وأخرجه أيضاً أبو داود والنسائى وأحمد .

(٣) أخرجه أبو داود فى الصلاة باب من أحق بالإمامة ٢ / ٢٩٣ رقم ٥٨١ عون .

تسأل الأسئلة بتركيز ، ويجيب ﷺ عليهم بما يشفى غليلهم ، ويوضح لهم روح دينهم . انظر إلى وفد عبد القيس إذ يقول :«يا رسول الله إنا نأتيك من شقة بعيدة ، وإن بيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر ، وإنا لا نستطيع أن نأتيك إلّا فى شهر الحرام ، فمرنا بأمر فصل ، نخبر به من وراءنا ندخل به الجنة ... الحديث[1] » تجد أنهم لم يحضروا ليسمعوا ما صادفوه ، وإنما « مرنا بأمر فصل ، نخبر به من وراءنا ، ندخل به الجنة » فطلبوا التعاليم عامة شاملة تورث الجنة .

ولقد كانت الوفود كثيرة[2] ، وأسئلتهم عامة شاملة ، وتُبَلّغ إلى أنحاء البلاد مما كان سبباً فى نشر الإسلام .

وكان الرجل يجيء بنفسه ليسأل عن أمور دينه ، ولربما قطع فى سبيل ذلك طويل المسافات ، وتحمل شديد مشاق السفر . يصور ذلك حديث طلحة بن عبيد الله قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ، ثائر الرأس ، نسمع دوىّ صوته ، ولا نفقه ما يقول ، حتى دنا من رسول الله ﷺ ، فإذا هو يسأل عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : خمس صلوات فى اليوم والليلة ... الحديث[3] .

وكما فى حديث عقبة بن الحارث إذ تزوج ابنة لأبى إهاب بن عزيز ، فأتته امرأة . فقالت : إنى قد أرضعت عقبة والتى تزوج . فقال لها عقبة : ما علمت أنك أرضعتنى ، ولا أخبرتنى . فركب إلى رسول الله ﷺ بالمدينة[4] ، فسأله : فقال رسول الله ﷺ : كيف وقد قيل ؟ ففارقها عقبة ، ونكحت زوجاً غيره[5] .

وبعد أن انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، زاد حرص الصحابة على

---

(١) أخرجه مسلم ١ / ١٥٨ والبخارى فى العلم باب تحريض النبى ﷺ وفد عبد القيس على أن يحفظوا الإيمان ١ / ١٨٣ ، ١٨٤ .

(٢) ذكر ابن سعد فى كتابه « الطبقات الكبرى » تحت عنوان « ذكر وفادات العرب على رسول الله ﷺ » نحو سبعين وفداً ، فراجع الطبقات ج ١ ص ٢٩١ — ٣٥٩ .

(٣) أخرجه مسلم ١ / ١٤١ .

(٤) وكان عقبة يسكن مكة .

(٥) أخرجه البخارى فى العلم باب الرحلة فى المسألة النازلة ١ / ١٨٤ .

السنة ، وتفانوا فى خدمتها . وتسابقوا فى طلبها ، وجمعها وفهمها ، وتطبيقها مفضلين السماع ممن سمع من رسول الله ﷺ مباشرة ، حريصين على اللفظ النبوى ، وعلى تناقله كما قاله ﷺ جهد الطاقة . وأسوق إليك نماذج تبين هذا :

أخرج الخطيب بسنده عن سعد بن عبيدة السلمى ، عن ابن عمر قال : بنى الإسلام على خمس : على أن تعبد الله ، وتكفر بما دونه ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصيام رمضان . فقال رجل : تعبد الله وتكفر بما دونه ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان . قال : لا ، اجعل صيام رمضان آخرهن ، كما سمعتُ من فى رسول الله ﷺ(١) .

وعن ابن عباس قال : كان يبلغنا الحديث عن رجل من أصحاب النبى ﷺ ، فلو أشأ أن أرسل إليه حتى يجيئنى فيحدثنى فعلت ، ولكنى كنت أذهب إليه ، فأقيل على بابه ، حتى يخرج إلىّ فيحدثنى(٢) .

وعن أبى سعد الأعمى أن أبا أيوب رحل إلى عقبة بن عامر ، فلما قدم مصر ، أخبروا عقبة ، فخرج إليه . قال : حدثنا ما سمعته من رسول الله ﷺ فى ستر المسلم ، لم يبق أحد سمعه غيرى وغيرك . قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من ستر مسلماً على خِزْيَةٍ(٣) ، ستره الله يوم القيامة » فأتى أبو أيوب راحلته ، فركبها وانصرف إلى المدينة ، وما حل رحله(٤) .

وعن جابر بن عبد الله قال : بلغنى حديث رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ، فابتعت بعيراً ، فشددت عليه رحلى ، ثم سرت إليه شهراً ، حتى قدمت الشام ، فإذا عبد الله بن أنيس الأنصارى ، فأتيت منزله . وأرسلت إليه ، إن جابراً على الباب ، فرجع إلىّ الرسول فقال : جابر بن عبد الله ؟ فقلت : نعم . فخرج إلىّ فاعتنقته واعتنقنى . قال : قلت حديث بلغنى

---

(١) الكفاية ص ٢٧١ .

(٢) أخرجه فى جامع بيان العلم ١ / ١١٢ .

(٣) الشيء الذى يستحيا منه ، أو من الهوان والفضيحة . النهاية ٢ / ١٧ ، ٣٠ .

(٤) أخرجه فى جامع بيان العلم ١ / ١١٢ . وأخرجه الحاكم فى معرفة علوم الحديث ص ٧ ، ٨ ، وأخرجه أحمد فى مسنده ٤ / ١٥٣ ، ١٥٤ ، وأخرجه الخطيب فى الرحلة ص ١١٨ وراجع مجمع الزوائد ١ / ١٣٤ .

عنك ، أنك سمعته من رسول الله ﷺ فى المظالم ، لم أسمعه أنا منه . قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الله تبارك وتعالى العباد — أو قال الناس ، شك همام ، وأومأ بيده إلى الشام — حفاة عراة غرلاً بُهْماً . قال : قلنا ما بهما ؟ قال : ليس معهم شيء ، فيناديهم بصوت يسمعه مَنْ بَعُدَ ، ويسمعه مَنْ قرب : أنا الملك الديّان ، لا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة ، حتى اللطمة ، ولا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة حتى اللطمة . قال : قلنا له كيف ، وإنا نأتى الله عز وجل حفاة عراة غرلاً ؟ قال : بالحسنات والسيئات »(١) ومن تتبع وجد كثيراً من الأخبار الدالة على تحمل الصحابة والتابعين ، بل استهانتهم فى سبيل خدمة السنة بكل شدة ومشقة ، حتى سافر أحدهم من أجل حرف . ولم يكتف آخر بسماع الحديث من غير النبى ﷺ ، بل سافر إليه ليسمع منه مباشرة ، مهما كانت مشاق السفر ، سافر أحدهم من أجل حديث المفاوز ، بل سافر من أجل أن يسمع حديثاً سمعه من رسول الله ﷺ حتى يتثبت(٢) .

ومما يوضح هِمَمَهُمْ فى طلب الحديث قول ابن عمر : قل لطالب العلم يتخذ نعلين من حديد(٣) . وما ذلك إلا لكثرة الارتحال فى طلب العلم . حتى قال التابعى الجليل سعيد بن المسيب : إنى كنت لأسير الأيام والليالى فى طلب الحديث الواحد(٤) . أقول : ومن يشابه أبه فما ظلم .فسعيد تلميذ الصحابة الذين رحلوا ، وعلى العلم حرصوا .

---

(١) أخرجه فى جامع بيان العلم ١ / ١١١ ، وأخرجه الحاكم فى المستدرك ٢ / ٤٢٧ ، ٤٢٨ و ٤ / ٥٧٤ ، ٥٧٥ وصححه ، وأقره الذهبى . وأخرجه البخارى تعليقاً فى الصحيح ومتصلاً فى الأدب المفرد ، فأخرجه تعليقاً فى العلم باب الخروج فى طلب العلم ١ / ١٧٣ فتح البارى بصيغة الجزم ، وفى التوحيد باب « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ... » ١٣ / ٤٥٣ بصيغة التمريض . وأخرجه فى الأدب المفرد باب المعانقة ص ٣٣٧ وأخرجه الخطيب فى الرحلة ص ١٠٩ . وأخرجه أحمد ٣ / ٤٩٥ من مسند عبد الله بن أنيس ، وذكره فى مجمع الزوائد ١٣٣/١ وعزاه لأحمد والطبرانى فى الكبير ، وعبد الله بن محمد — الراوى عن جابر — ضعيف ، كذا فى المجمع .

(٢) راجع جامع بيان العلم ١ / ١١١ ، والحاكم فى المعرفة ص ٨ مختصراً ، ومجمع الزوائد ١ / ١٣٣ ، والرحلة فى طلب الحديث ، وفى تقدمة الجرح والتعديل ما يبين مدى ما تحمله أئمة الحديث من أجل الحفاظ على السنة .

(٣) معرفة علوم الحديث ص ٩ .

(٤) معرفة علوم الحديث ص ٨ .

وهكذا يتضح لنا حب الصحابة لدينهم، وحرصهم عليه. وأن هذا الحرص كان سبباً فى أعمال علمية، ما زالت الإنسانية تتشوق إلى مثلها.

شرعية الإسناد[1] والاهتمام به :

حث رسول الله ﷺ الأمة على أن يأخذ كل منها العلم عمن فوقه، ويبلغه إلى من دونه، إذ فى ذلك بقاء العلم وإظهاره، ومعرفة أحكام الدين وإشهاره.

يقول ﷺ : « تَسْمعون ويُسْمع منكم، ويُسْمع ممن يَسْمع منكم »[2] .

ويقول : « بلغوا عنى ولو آية ... الحديث »[3] .

ويقول : « نضّر الله امرءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه عنا كما سمعه، فربّ حامل فقه غير فقيه » وفى رواية : « وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه » وفى رواية : « فربّ مبلَّغ أوعى له من سامع » [4] .

وقال فى حجة الوداع: « ليبلغ الشاهد الغائب، فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه »[5] .

وقال لوفد عبد القيس: «احفظوه . وأخبروا به مَنْ وراءكم»[6] .

وهو ﷺ إذا كان قد حث الأمة على السماع والإسماع، اللذين هما حصن أمان للسنة من الضياع، فإنما يؤكد ما جاء فى كتاب الله سبحانه .

---

(١) حينما يروى إمام من أئمة السنة عن شيخه عن شيخ شيخه حتى يصل إلى رسول الله ﷺ فإن علماء الحديث يطلقون على سلسلة الرجال منه إلى رسول الله « الإسناد » فالإسناد عندهم : سلسلة الرجال الموصلة للمتن، والمتن: كلام رسول الله ﷺ .

(٢) أخرجه ابن حبان وأبو داود وأحمد عن ابن عباس .
(٣) أخرجه البخارى والترمذى وأحمد عن عبد الله بن عمرو .
(٤) أخرجه ابن حبان والترمذى وأبو داود وأحمد عن زيد بن ثابت .
(٥) أخرجه البخارى ومسلم عن أبى بكرة نفيع بن الحارث بن كلدة .
(٦) أخرجه البخارى ومسلم وقد تقدم .

قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ... الآية ﴾[1] .

وقال سبحانه :

﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ... الآية ﴾[2] .

وقال سبحانه :

﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ... الآية ﴾[3] .

وقال سبحانه :

﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلَّا العالِمون﴾[4] .

وقال سبحانه :

﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ... الآية ﴾[5] .

وهو ﷺ حث على طلب العلم عموماً فقال : « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين »[6] وقال : « طلب العلم فريضة على كل مسلم »[7] إلى غير ذلك مما فى موضوع هذين الحديثين ، لكنه نص على التبليغ عنه ، وعلى السماع والإسماع لأن هذا هو سبيل الحفاظ على السنة ، فإذا اهتمت الأمة بأن يبلغ كل منها ما عنده بأن يُسمعه الآخرين ، وحرص كل إنسان على أن يسمع ما ليس عنده ، فإن مدرسة الحديث ستقوى وتنشط ، وهذا سبيل الحفاظ على السنة فلا يضيع منها شىء .

---

(١) المجادلة آية ١١ .　(٢) الزمر آية ٩ .　(٣) فاطر آية ٢٨ .

(٤) العنكبوت آية ٤٣ .　(٥) التوبة آية ١٢٢ .

(٦) أخرجه الشيخان ــ أطول من هذا ــ عن معاوية بن أبى سفيان .

(٧) أخرجه ابن ماجه وابن عبد البر فى جامع بيان العلم ، وراجع المقاصد الحسنة ص ٢٧٥ رقم ٦٦٠ .

وحصن آخر للسنة وضعه ﷺ حتى لا يدخل فيها ما ليس منها ، هذا الحصن هو التحذير من الكذب عليه ﷺ ، فحذر من الكذب عليه ، ومن رواية المكذوب ، مبيناً أن هذا النوع من الكذب ليس كأى كذب ، وإنما هو كذب فى دين الله ، إثمه أعظم ، والعقوبة عليه أشد .

فعن سمرة بن جندب وعن المغيرة بن شعبة قالا : قال رسول الله ﷺ « من حدّث عنّى بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين »(١) روى بفتح الباء ــ الموحدة ــ مثنى « كاذب » وروى بكسر الباء جمع « كاذب » .

وعن على ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول ﷺ : « لا تكذبوا علىّ ، فإنه من يكذب على يلج النّار »(٢) .

وعن أنس أنه قال : إنه ليمنعنى أن أحدثكم حديثاً كثيراً أن رسول الله ﷺ قال : « من تعمّد علىّ كذباً فليتبوأ مقعده من النار »(٣) .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار »(٤) .

وعن المغيرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن كذباً علىّ ليس ككذب على أحد ، فمن كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار »(٥) .

وبيّن القرآن الكريم أن الخبر المقبول إنما هو خبر العدل . أما خبر الفاسق فلا ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا ... الآية** ﴾(٦) .

---

(١) أخرجه مسلم فى مقدمة صحيحه ج ١ ص ٥١ ، ٥٢ طبعة الشعب والترمذى فى العلم باب فى من روى حديثاً وهو يرى أنه كذب ٧ / ٤٢٢ تحفة الأحوذى وقال : حس صحيح . وأخرجه ابن ماجه فى المقدمة باب من حدث عن رسول الله ﷺ حديثاً وهو يرى أنه كذب ١ / ١٤ ، ١٥ رقم ٣٩ ، ٤١ وأخرجه أحمد ٥ / ١٤ ، ٢٠ عن سمرة وحده .

(٢ ــ ٥) هذه الأحاديث أخرجها مسلم فى مقدمة صحيحه ج ١ ص ٥٣ ــ ٥٧ وهى عند غيره ، وفى هذا الموضوع أحاديث أكثر مما ذكرت هنا .

(٦) سورة الحجرات آية ٦ .

وقال سبحانه : ﴿ **وأشهدوا ذوى عدل منكم** ﴾[1] .

فدلت الآية الأولى على وجوب التبين والكشف عن خبرالفاسق . ودلت الثانية على الاعتماد على خبر العدل ، وهى وإن كانت فى الشهادة ، فالخبر وإن فارق معناه معنى الشهادة فى بعض الوجوه ، فإنهما يجتمعان فى معظم معانيها [2] .

ومن هذين ــ الحث على السماع والإسماع ، والرواية عن العدول فقط ــ كان علم الإسناد .

ولقد حظى هذا العلم باهتمام الأمة اهتماماً منقطع النظير ، ومبعث هذا الاهتمام إدراكهم أن الإسناد أساس حفظ هذا الدين .

قال عبد الله بن المبارك : الإسناد من الدين ، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء [3] .

وقال أيضاً : بيننا وبين القوم القوائم ــ يعنى الإسناد ــ[4] .

وقال محمد بن سيرين : إن هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذون دينكم[5] .

والمراد بالعلم علم الإسناد .

وقال الضحاك بن مزاحم : إن هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذونه[6] .

---

(١) سورة الطلاق آية ٢ .

(٢) راجع مقدمة صحيح مسلم « وجوب الرواية عن الثقات » ص ٥٠ الأصل ــ كلام مسلم ــ والشرح .

(٣) معرفة علوم الحديث ص ٦ ومقدمة صحيح مسلم ص ٧٣ ، ٧٤ « بيان أن الإسناد من الدين » .

(٤) مقدمة صحيح مسلم ص ٧٤ . وتفسير القوائم بالإسناد من كلام الإمام مسلم . والإسناد : مجموعة الرجال الذين يروون الحديث من المؤلف ــ كالبخارى مثلاً ــ إلى النبى ﷺ ، يرويه شيخ البخارى عن شيخه ، ويرويه شيخه عن شيخ شيخه إلى رسول الله ﷺ . فإذا كان هؤلاء الرواة عدولاً ــ يعنى يتقون الله تعالى فلا يفعلون ذنباً ، وكانت عقيدتهم صحيحة ــ كان الحديث عنهم مقبولاً ، لأن تقواهم وسلامة عقيدتهم تضمن لنا صدقهم .

(٥) مقدمة صحيح مسلم ص ٧٠ والكفاية ص ١٩٦ .

(٦) الكفاية ص ١٩٦

وقال طاووس : إن كان صاحبك مليًا ــ أى يعتمد عليه بأن يكون عدلاً ضابطاً ــ فخذ عنه(١) .

وقال مالك : اتق الله ، وانظر ممن تأخذ هذا الشأن(٢) .

وقال محمد بن سيرين : لم يكونوا يَسْألون عن الإسناد ، فلما وقعت الفتنة قالوا سمّوا لنا رجالكم ، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم ، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم(٣) .

وقال سعد بن إبراهيم : لا يحدث عن رسول الله ﷺ إلّا الثقات(٤) .

وقال القاضى أبو بكر بن العربى المعافرى : والله أكرم هذه الأمة بالإسناد ، لم يعطه أحداً غيرها ، فاحذروا أن تسلكوا مسلك اليهود والنصارى ، فتحدثوا بغير إسناد ، فتكونوا سالبين نعمة الله عن أنفسكم ، مطرقين للتهمة إليكم ، وخافضين لمنزلتكم ، ومشتركين مع قوم لعنهم الله ، وغضب عليهم ، وراكبين لسنتهم(٥) .

وإذا كان الإسلام قد بيّن عظم منزلة الإسناد ، وأن الخبر لا يقبل إلّا عن عدل ، فإنه أجاز الكلام فى حال رجال الرواية ، بل اعتبر ذلك من النصيحة الواجبة ، وذلك لتسلم الشريعة من الدس والدخيل ، ولا يوجد سبيل لمن فى قلبه مرض ، فجاء فى القرآن الكريم ثناء على أهل الصلاح وهذا تعديل ، وجاء فيه ذم لأهل الطلاح وهذا تجريح .

فقال سبحانه فى شأن أيوب عليه السلام:﴿ **نعم العبد إنه أواب** ﴾ .

وقال سبحانه : ﴿ **وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار** ﴾ .

وفى جانب الجرح قال سبحانه:﴿ **ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير ، معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم** ﴾ .

---

(١) مقدمة صحيح مسلم ص ٧١ وسنن الدارمى فى المقدمة باب فى الحديث عن الثقات ١ / ٩٣ .

(٢) الكفاية ص ١٩٩ .

(٣) مقدمة صحيح مسلم ص ٧١ وسنن الدارمى فى المقدمة باب فى الحديث عن الثقات ١ / ٩٣ وقال الدارمى عقبة : ما أظنه أى ابن سيرين ــ سمعه من عاصم ــ الأحوال ــ .

(٤) مقدمة صحيح مسلم ص ٧٣ وسنن الدارمى الموضع السابق .

(٥) فهرس الفهارس جـ ١ ص ٨٠ نقلاً عن سراج المريدين لابن العربى ، شرح الاسم ١١٢ .

وقال سبحانه : ﴿ ناصية كاذبة خاطئة ﴾ .

وقال ﷺ فى جانب التعديل : « إن عبد الله رجل صالح » .

وفى جانب الجرح قال : « بئس أخو العشيرة » .

ومن ثم اجتهدت الأمة فى هذا الباب ، فتكلم الصحابة فيه — أى التعديل والتجريح — ولكن كان القول قليلًا ، فإن الصحابة جميعاً معدَّلون بتعديل الله لهم(١) ، ولم يكن الجرح فى عهدهم إلّا بالنسيان ، أو الخطأ ، وهذا فيهم قليل ، لقوة ملكاتهم وشدة حرصهم(٢) .

أما من وجد فى عصرهم وهو غير صحابى ، بأن أسلم بعد موت رسول الله ﷺ ، سواء من العرب ، أو الأمم الأخرى ، فلم يأخذوا عنه ما رواه عن بعضهم ، إذ وجود الصحابة كاف ، فكيف يأخذون عمن أخذ عن الصحابى ، والصحابى موجود ؟ فلم يكن لحديث عهد بالإسلام دخل فى الرواية فى تلك الحقبة .

وما أخذه الصحابة عن علماء أهل الكتاب . فإنهم لم يرفعوه — أى لم يضيفوه إلى رسول الله ﷺ — وإنما بيّنوا مصدره ، ومن هنا لم يدخل شىء منه فى السنة ، ولا أشكل شىء منه على المحدثين ، لمعرفة مصدره .

ومن الذين تكلموا فى عهد الصحابة فى حال الرواة :

— عبد الله بن عباس ، حبر هذه الأمة وفقيهها .
— وعبادة بن الصامت .
— وأنس بن مالك .
— وأم المؤمنين عائشة . رضى الله عنهم أجمعين .

أما فى عصر كبار التابعين فوجد من له أوهام وأغلاط ، ووجد فيهم الضعفاء ، ممن كانوا من دعاة المذاهب الخارجة ، والنحل الغالية ، ولم يوجد من يتعمد الكذب . فتكلم العلماء فى الواحد بعد الواحد .

(١ ، ٢) تقدم بيان ذلك هنا .

ومن تكلم فى هذا العصر : الشعبى . وابن المسيب . وابن سيرين .

أما فى عصر أوساط التابعين ، فى أوائل القرن الثانى الهجرى ، فوجد فيهم من الضعفاء من يقع منه رفع الموقوف ، ووقف المرفوع ، ورواية المرسل . ومن يكثر خطؤه كأبى هارون عمارة بن الجوين العبدى .

أما فى عصر صغار التابعين ، فى حدود منتصف القرن الثانى ، فلقد جد فيهم الفرق السياسية ، والعناصر الفلسفية ، وازداد التعصب ، فظهر الكذب ، ولزم من ذلك أن يتكلم العلماء فى الرجال ، وأن يتسع النظر فى الجرح والتعديل ، خصوصاً وقد كثر بعد ذلك فى أتباع التابعين من يتعمد الكذب فى عصرهم .

فتكلم : شعبة ، ومالك ، ومعمر ، وهشام الدستوائى .

ثم : ابن المبارك ، وهشيم ، وابن عيينة .

ومن بعدهم :

يحيى بن سعيد القطان ، وعبد الرحمن بن مهدى .

وأول من جمع كلامه فى ذلك يحيى بن سعيد ثم تلامذته مثل :

يحيى بن معين ، وعلى بن المدينى، وأحمد بن حنبل .

ثم تلامذتهم : كالبخارى ، ومسلم ، وأبى زرعة ، وأبى حاتم .

ثم تلامذتهم : كالترمذى ، والنسائى ، إلى آخر عصر الرواية فى حدود الثلاثمائة .

وامتاز المتكلمون فى هذا الفن بميزة جعلت علم الجرح والتعديل محل إعجاب القاصى والدانى ، وأصبح المؤرخ لأى فن ، والدارس لأى تاريخ يحاول أن يصل به إلى ما وصل إليه علم السنة النبوية من ثبوت ووثوق به . ولكن هيهات هيهات !! إن الأمر دين ، والله قد تكفل بحفظه ، ووعد الله لا بد أن يتحقق . تلك الميزة هى أنهم كانوا ينقدون ويعدلون حسبة لله ، لا تأخذهم خشية أحد ، ولا تتملكهم عاطفة ، فليس أحد من أهل الحديث يحابى فى الحديث أباه ولا أخاه ، ولا ولده .

سئل زيد بن أبي أنيسة عن أخيه فقال : لا تأخذوا عن أخي .

وسئل على بن المديني عن أبيه فقال : سلوا عنه غيرى ، فأعادوا المسألة فأطرق ، ثم رفع رأسه فقال:—هو الدين — إنه ضعيف .

وكان وكيع بن الجراح لكون والده كان على بيت المال ، يقرن معه آخر ، إذا روى عنه .

وقال أبو داود: — صاحب السنن — ابنى عبد الله كذاب .

وقال الذهبى : — فى ولده أبى هريرة — إنه حفظ القرآن ، ثم تشاغل عنه حتى نسيه(١) .

وسأل عبد الخالق بن منصور يحيى بن معين عن على بن قرين فقال : كذاب . فقال عبد الخالق لابن معين : إنه ليذكر أنه كثير التعاهد لكم !! فقال يحيى : صدق ، إنه ليكثر التعاهد لنا ، ولكنى أستحى من الله أن أقول إلّا الحق(٢) .

وكانت المظاهر لا تغريهم ، وكل ما يهمهم أن يخلصوا العمل لله ، ويصلوا إلى الحق الذى ترتاح عنده ضمائرهم ، لخدمة الشريعة ، ودفع ما يشوبها ، وبيان الحق من الباطل .

قال يحيى بن معين : إنا لنطعن على أقوام . لعلهم قد حطوا رحالهم فى الجنة منذ أكثر من مائتى سنة . أى أناس صالحون ، ولكنهم ليسوا من أهل الحديث . وكذا قال يوسف بن الحسين الرازى .

وقيل ليحيى بن سعيد القطان : أما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماءك عند الله تعالى ؟ قال : لأن يكون هؤلاء خصمائى أحب إلىّ من أن يكون خصمى رسول الله ﷺ يقول : لم حدثت عنى حديثاً ترى أنه كذب(٣) ؟!! وورد عنه أيضاً: «لم لم تذب الكذب عن حديثى » .

---

(١) راجع فتح المغيث للسخاوى ٣ / ٣٢٣ ومقدمة صحيح مسلم ، والإعلان بالتوبيخ .

(٢) تاريخ بغداد ١٢ / ٥١ بتصرف وكثرة التعاهد معناها كثرة التردد وتفقد الأحوال بالنظر فيها . ولقد كان على بن قرين يفعل ذلك بيحيى بن معين ، ويحيى إمام من أئمة الجرح والتعديل ، فلم يمنعه قيام على ببعض شئونه أن يقول الحق ، فإن الحياء من الله يفرض عليه الصدق والنصح .

(٣) الكفاية ص ٩٠ .

وخلاصة القول أن الرسول ﷺ بلغ الصحابة السنة وفق منهج ييسر حفظ السنة على أكمل وجه ، وألفاظه ﷺ فى قمة البلاغة وفى غاية الإيجاز ، مما جعل أحاديثه تتوق النفوس إليها ، ويَسْهُل حفظها .

ولما كانت السنة مشتملة على مكارم الأخلاق ومعاليها ، وكانت جزءاً من الدين ، حرص الصحابة على معرفتها وتطبيقها ، وهم أناس أتقياء أذكياء ، ذاكرتهم قوية ، وحبهم لدين الله شديد . فحفظوا السنة وبلّغوها غيرهم .

وظلت السنة تُتناقل ينقلها الخلف عن السلف ، امتثالاً لتكليف الإسلام الأمة بطلب العلم وتبليغه ، وهم يقبلون رواية من سلمت عقيدته وصحت ، وقويت ذاكرته وحَفِظت ، أما من فى عقيدته دخل ، أو فى ذاكرته خلل فلقد بين علماء الجرح والتعديل حاله ، فرد الجميع روايته ، ولم يقبلوا ما أخبر به .

وهكذا صينت السنة وحفظت ، فلم يضع منها ما هو منها ، ولم يدخل فيها شيء ليس منها ، بل بقيت كما أوحاها الله سبحانه وتعالى إلى نبيه ، بياناً للقرآن ، وهداية للبشرية إلى الطريق القويم ، والصراط المستقيم ، أقوى من أن يؤثر فيها حقد أعداء الإسلام ، وأعلى من أن ينال منها طول الزمان وتعاقب الملوان . وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض** ﴾(١) فستظل السنة محفوظة بحفظ الله ، وتهيئته سبحانه وتعالى لها أسباب الحفظ والذيوع ،لأنها مصدر كل نفع ، جعلنا الله من العالمين بدينه ، العاملين به ، المدافعين عنه ،المتمسكين بسنة رسوله ﷺ ، العاملين على نصرتها ، والأخذ بيد الأمة إليها . وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

والحمد لله رب العالمين

---

(١) سورة الرعد آية ١٧ .

السُّنَّة النَّبَوِيَّة
كِتَابتها ، تَدْوِينها ، تَصْنِيفها

- كلام السابقين على التدوين .
- الفرق بين الكتابة والتدوين والتصنيف .
- مرحلة الكتابة (النهى عنها ، الترخيص فيها ، التوفيق) .
- السنة بعد عصر التابعين .
- طبيعة الكتابة والباعث عليها .
- آثار هذه الحقبة .
- مرحلتا التدوين والتصنيف .
- خلاصة الباب .

السُّنّة النّبويّة
كِتَابتها، تَدْوِينها، تَصْنِيفها

شاع فى كتابات السابقين ما يفيد أن السنة لم تُدون إلّا فى نهاية القرن الأول الهجرى ، فى عهد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ، وأن أول من قام بالتدوين محمد بن شهاب الزهرى ، المتوفى سنة « ١٢٤ » ، والربيع بن صبيح ، المتوفى سنة « ١٦٠ » ، وسعيد بن أبى عروبة ، المتوفى سنة « ١٥٦ » ، وغيرهم .

يقول الحافظ ابن حجر(١) : « اعلم ـــ علمنى الله وإياك ـــ أن آثار النبى ﷺ لم تكن فى عصر أصحابه وكبار من تبعهم مدونة فى الجوامع ، ولا مرتبة لأمرين :

أحدهما : أنهم كانوا فى ابتداء الحال قد نُهوا عن ذلك ، كما ثبت فى صحيح مسلم(٢) خشية أن يختلط بعض ذلك بالقرآن العظيم .

وثانيهما : لسعة حفظهم وسيلان أذهانهم ، ولأن أكثرهم كانوا لا يعرفون الكتابة . ثم حدث فى أواخر عصر التابعين تدوين الآثار وتبويب الأخبار ، لمّا انتشر العلماء فى الأمصار ، وكثر الابتداع من الخوارج والروافض ومنكرى الأقدار ، فأول من جمع ذلك الربيع بن صبيح وسعيد بن أبى عروبة وغيرهما ، وكانوا يصنفون كل باب على حدة ، إلى أن قام كبار أهل الطبقة الثالثة فدونوا الأحكام ... إلخ .

---

(١) هدى السارى ص ٦ .

(٢) يشير إلى حديث أبى سعيد الخدرى وسيأتى إن شاء الله تعالى فى أحاديث النهى عن الكتابة .

ويقول[1]:وأول من دوّن الحديث ابن شهاب الزهرى ، على رأس المائة ، بأمر عمر بن عبد العزيز . ثم كثر التدوين . ثم التصنيف .

ويقول الحافظ الذهبى[2] : « وفى هذا الزمان ــ زمن الطبقة الرابعة ــ ظهربالبصرة عمرو بن عبيد العابد وواصل بن عطاء الغزال ودعوا الناس إلى الاعتزال والقول بالقدر ، وظهر بخراسان الجهم بن صفوان ودعا إلى تعطيل الرب عز وجل وخلق القرآن ، وظهر بخراسان فى قبالته مقاتل بن سليمان المفسر وبالغ فى إثبات الصفات حتى جسم ، وقام على هؤلاء علماء التابعين وأئمة السلف وحذروا من بدعهم .

وشرع الكبار فى تدوين السنن ، وتأليف الفروع ، وتصنيف العربية . ثم كثر ذلك فى أيام الرشيد ، وكثرت التصانيف ، وألفوا فى اللغات . وأخذ حفظ العلماء ينقص ، ودونت الكتب واتكلوا عليها ، وإنما كان قبل ذلك علم الصحابة والتابعين فى الصدور ، فهى كانت خزائن العلم لهم رضى الله عنهم .

وظاهر من كلامهم هذا أن السنة النبوية لم تدوّن إلّا فى نهاية المائة الأولى من التاريخ الهجرى .

الفرق بين الكتابة والتدوين :

وفهم المعاصرون ــ العامة وبعض الخاصة[3] ــ خطأ أن التدوين هو الكتابة وعليه فإن السنة ــ كما فهم المعاصرون من كلام السابقين ــ ظلت محفوظة فى الصدور لم تكتب إلّا فى نهاية القرن الأول الهجرى ، فى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز .

---

(١) الفتح ١ / ٢٠٨ .

(٢) تذكرة الحفاظ ص ١٥٩ .

(٣) إذ أن بعضهم لم يلتبس عليه الأمر فى ذلك ، من هؤلاء الإمام المباركفورى المتوفى « ١٣٥٣ » فلقد عقد فى مقدمة تحفة الأحوذى فصلاً لتدوين الحديث ج ١ ص ٢٤ ثم أتبعه بفصل لكتابة الحديث ص ٣٤ .

ولذا يقول الجزائرى[1] : ولما توفى النبى عليه الصلاة والسلام بادر الصحابة إلى جمع ما كتب فى عهده فى موضع واحد وسموا ذلك المصحف ، واقتصروا على ذلك ولم يتجاوزوه إلى كتابة الحديث وجمعه فى موضع واحد كما فعلوا بالقرآن ، ولكن صرفوا هممهم إلى نشره بطريق الرواية إما بنفس الألفاظ التى سمعوها منه عليه الصلاة والسلام ، إن بقيت فى أذهانهم ، أو بما يؤدى معناها إن غابت عنهم ، فإن المقصود بالحديث هو المعنى ، ولا يتعلق فى الغالب حكم بالمبنى . بخلاف القرآن فإن لألفاظه مدخلاً فى الإعجاز .

ثم قال : ولم يزل أمر الحديث فى عصر الصحابة وأول عصر التابعين على ما ذكرنا ، ولما أفضت الخلافة إلى من قام بحقها عمر بن عبد العزيز أمر بكتابة الحديث .

ويقول صاحب كتاب « السنة قبل التدوين » ـــ عند حديثه على صحيفة همام ابن منبه : « ولهذه الصحيفة أهمية تاريخية فى تدوين الحديث الشريف ، لأنها حجة قاطعة ودليل ساطع على أن الحديث النبوى كان قد دُوِّن فى عصر مبكر ، وتصحح الخطأ الشائع أن الحديث لم يدون إلَّا فى أوائل القرن الهجرى الثانى[2] .

ويقول أيضاً : « وأما تدوين السنة فقد عرضنا فى الباب الرابع ما روى عن الرسول ﷺ فى الكتابة من أخبار حول منعها وإباحتها ، وخلصنا إلى أن الرسول ﷺ أباح كتابة الحديث بعد منعها . كما عرضنا ما روى عن الصحابة والتابعين فى الكتابة ، وانتهينا إلى أن جميع ما روى عنهم حول السماح بتدوين الحديث أو منع تدوينه لم يكن متعارضاً متضارباً ، بل كان متعاضداً فى سبيل حفظ القرآن الكريم ، وسمحوا بها حين أمنوا ذلك[3] .

وهذا الفهم ـــ أن التدوين هو الكتابة ـــ أدى إلى الحيرة فى فهم النصوص ، فكيف يرفض أبو بكر تدوين السنة فى حين أنه كتب إلى عماله كتاباً ؟ وكيف يرفض عمر تدوين السنة فى حين أنه روى عنه أنه قال: « قيدوا العلم بالكتاب » ؟ وكتب الكتب وأرسلها ، وكتب صحيفة أودعها قائم

(١) توجيه النظر ص ٦ .
(٢) السنة قبل التدوين ص ٣٥٦ ، ٣٥٧ .
(٣) السنة قبل التدوين ص ٥٣٠ .

سيفه[1] ، وجدها ابنه عبد الله ، وفيها : ليس فيما دون خمس من الإبل صدقة ... إلخ ؟ .

وكما أدى هذا الفهم إلى الحيرة فلقد كان ثلمة فى تاريخ السنة دخل منها الأعداء ، مدعين أن السنة دخلها الزيف ، محتجين بأن العلم الذى يظل قرناً[2] دون تسجيل لا بد وأن يعتريه تغيير ويدخله التحريف ، فإن الذهن يغفل والذاكرة تنسى ، أما القلم فهو حصن أمان لما يدوّن به .

وراح أبناء الإسلام يدافعون عن دينهم بأن حافظة الرواة كانت قوية ، وحرصهم على السنة كان شديداً ، ولكن هذا لم يُجْدِ ، وراح بعضهم يقول : قد وجدت الرد السليم إن شيئاً من السنة قد كتب ــ وسموا هذا المكتوب بالتدوين الشخصى ، أما مافعله عمر بن عبد العزيز فسموه التدوين الرسمى أو العام ــ فرد عليهم أعداء الإسلام بأقوال أئمتهم وسابقيهم بأن السنة لم تدون إلَّا فى نهاية القرن الأول فذهب بعض المعاصرين يخطئ السابقين ــ كما فى قول صاحب السنة قبل التدوين ــ وبعضهم يمنعه الأدب من ذلك ، إلَّا أنه يتبرم مما كتبه السابقون .

ولو أن المعاصرين فهموا حقيقة التدوين وحقيقة الكتابة وأدركوا الفرق بينهما لما تعارضت النصوص فى فهمهم ، ولما ضاع الجواب إذا اعترض أعداؤهم ، بل لما استطاع الأعداء أن يعترضوا طريقهم ، فإن الأعداء يقرؤون كتابات أبناء الإسلام أولاً ، ويأخذون السهم القاتل والسم الفاتك من نقاط الضعف فيها ، أو الحقائق المجهولة فى ثناياها .

وهذا تعريف موجز للكتابة والتدوين والتصنيف : يتضح منه الفرق بين الكتابة والتدوين :

أ ــ الكتابــة :

قال فى اللسان[3] : « كتب الشىء كتْباً وكتاباً وكتابة وكتبه خطَّه » .

(1) الكفاية ص ٥٠٥ .
(2) مائة سنة .
(3) ١ / ٦٩٨ .

فكتابة الشيء خطه .

ب ــ **التدوين** :

قال فى اللسان[١] : « والديوان مجتمع الصحف » . وقال فى تاج العروس[٢] : « وقد دونه تدويناً جمعه . وعليه فالتدوين هو جمع الصحف المشتتة فى ديوان ليحفظها » .

جـ ــ **التصنيف** :

قال فى اللسان[٣] : والتصنيف : تمييز الأشياء بعضها من بعض ، وصنّف الشيء ميز بعضه من بعض ، وتصنيف الشيء جعله أصنافاً . وعليه فالتصنيف تمييز الجزئيات ، كأن يميز المصنف الصواب من الخطأ ، أو الأهم من المهم .

ومن هذه التعاريف يتضح لنا أن الكتابة غير التدوين ، فالكتابة مطلق خط الشيء ، دون مراعاة لجمع الصحف المكتوبة فى إطار يجمعها . أما التدوين فمرحلة تالية للكتابة ، ويكون بجمع الصحف المكتوبة فى ديوان يحفظها .

وعلى ذلك فقول الأئمة إن السنة دونت فى نهاية القرن الأول لا يفيد أنها لم تكتب طيلة هذا القرن ، بل يفيد أنها كانت مكتوبة لكنها لم تصل لدرجة التدوين ــ جمع الصحف فى دفتر ــ وما فهمه المعاصرون ــ من أن التدوين هو الكتابة ــ فهو خطأ ، منشؤه عدم التمييز بين الكتابة والتدوين ولذا يلاحظ فى كلام الحافظ ابن حجر والحافظ الذهبى ــ الذى سبق أن ذكرته ــ أن مدار الحديث على التدوين ، وليس فى حديثهم شيء يتعلق بالكتابة .

---

(١) ١٣ / ١٦٦ .
(٢) ٩ / ٢٠٤ .
(٣) ٩ / ١٩٨ .

يقول ابن حجر : « لم تكن مدونة ولا مرتبة ... تدوين الآثار وتبويب الأخبار ... أول من جمع ذلك » ويقول الذهبى : « تدوين السنة » .

أما المتأخرون فمدار حديثهم على الكتابة ، وربما وضعوا الكتابة مكان التدوين ، والعكس . وهذا خلط أدى إلى الخطأ فى فهم كلام الأئمة السابقين .

والمتتبع لكلام الأئمة السابقين تتضح له الحقائق الآتية :

١ ــ أنه كان معلوماً لديهم الفرق بين الكتابة والتدوين ، وأنهم كانوا يعلمون أن السنة النبوية كتبت منذ أيامها الأولى ، أما التدوين فظهرت منه صور فردية خلال القرن الأول الهجرى ، ثم كثر وشاع .

٢ ــ أن وسيلة حفظ السنة لم تكن الكتابة فقط ، وإنما كانت الكتابة والحفظ ، فكان المسلم يحفظ القرآن الكريم والسنة النبوية ليسهل عليه العمل ، إذ المحفوظ مع الإنسان حيثما كان ، بخلاف المكتوب ، ولم يكن المسلم يعتمد على الكتابة ، وإنما كان يلجأ إليها إذا أشكل عليه لفظ .

٣ ــ أنه وإن كان النبى ﷺ نهى عن كتابة السنة أول الأمر فإن ذلك لم يدم ، وإنما أباح الكتابة ، وكتب ﷺ الكثير من السنة ، يأمر كتابه بكتابة الشىء ثم يرسله إلى الجهة التى يخصها ، أو الشخص الذى يعنيه ، وشاعت الكتابة وذاعت ، ثم انتقل الأمر إلى التدوين ، ثم التصنيف . وعليه فتكون السنة مرت بثلاث مراحل إجمالًا هى :

١ ــ مرحلة الكتابة .

٢ ــ مرحلة التدوين .

٣ ــ مرحلة التصنيف .

وبتوفيق الله سبحانه وتعالى أتناول كل مرحلة على حدتها .

١ ــ مرحلة الكتابـــة :

امتثالاً لقول الله عز وجل : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه**[1] ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله**[2] ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **وما ينطق**

---

(١) سورة الحشر . آية : ٧ .

(٢) سورة النساء . آية : ٨٠ .

عن الهوى،إن هو إلَّا وحى يوحى[1] ﴾ حرص الصحابة على السنة كل الحرص ، فحفظوها ، وما غابوا عنه سألوا مَنْ حضره ، وبكل ما علموا عملوا . لكن لما كان الذهن قد يغفل والذكرة قد تنسى ، اتجهوا إلى كتابة السنة فى صحف ، فلما اطّلع الرسول ﷺ أنكره ، وأمرهم أن يمحوا كل ما كتبوا ، إذ قال ﷺ : « من كتب عنى شيئاً غير القرآن فليمحه »[2] . وذلك حرص منه ﷺ على القرآن المَصْدَر الأول للشريعة ، والذى يختلف عن السُّنَّة فى كونه لا تجوز روايته بالمعنى ، فعمل على أن تتوافر الجهود لكتابة القرآن وحده ، أما السنة فعلى الأذهان أن تتحرك لتحفظها ولا خوف عليها ، فالرسول بينهم موجود ، وذاكرتهم قوية ، وذهنهم صاف ، واهتمامهم بدينهم شديد .

وفى نهيه ﷺ عن كتابة السنة أمان من اختلاط القرآن بالسنة ، فأسلوب القرآن وإن كان يختلف عن أسلوب البشر ، إلَّا أن العرب كانوا لم يدركوا ذلك بعد ، ولم يتمرسوه ، فليظل القرآن فى ساحة الكتابة وحده ، حتى تفهم الأذواق طبيعته ، وتدرك البون[3] بينه وبين أسلوب البشر ، فإذا ما فهموا أسلوب القرآن ، وأصبح من الثابت أنه لن يختلط بغيره ، فلتوجه الجهود لكتابة السنة أيضاً ، فهى المصدر الثانى للتشريع الإسلامى . وهنا يقول ﷺ : « قيِّدوا العلم بالكتاب » « استعن بيمينك » إلى آخر النصوص التى ستأتى — إن شاء الله تعالى — بعد قليل فى « الرخصة فى الكتابة » .

وهو ﷺ إذ يجيز لأصحابه الكتابة ، فإنما يجيزها كطريق من طرق حفظ المعلومات ، لا على أنها السبيل الوحيد ، بل ربما جاز لى أن أقول : إن المتتبع لسنته ﷺ ليشم منها تقديم الحفظ ، تجد هذا فى حديث عبد الله بن عمرو أنه

---

(1) سورة النجم . آية : ٣ ، ٤ .

(2) أخرجه مسلم عن أبى سعيد الخدرى فى الزهد باب التثبت فى الحديث وحكم كتابة العلم ٥ / ٨٤٧ ، وابن حبان فى العلم باب الزجر عن كِتْبَة المرء السنن مخافة أن يتكل عليها دون الحفظ لها ١ / ٢٣٤ ، والدارمى فى المقدمة باب من لم ير كتابة الحديث ١ / ٩٨ ، والحاكم فى العلم باب من أفتى الناس بغير علم ١ / ١٢٦ ، ١٢٧ وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى . قلت : هو عند مسلم — كما هنا — فليس يستدرك ، وأخرجه أيضاً ابن عبد البر فى جامع بيان العلم ١ / ٧٦ ، وأخرجه الخطيب فى تقييد العلم ص ٢٩ ، ٣٢ .

(3) الفرق الشاسع والبعيد .

أتى رسول الله ﷺ فقال : « يا رسول الله إنى أريد أن أروى من حديثك ، فأردت أن أستعين بكتاب يدى مع قلبى إن رأيت ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : « إن كان من حديثى ثم استعن بيدك مع قلبك (١) » فإنك تجد أنه ﷺ نصحه أولًا أن يثبت من أن ما يكتبه إنما هو من حديثه ﷺ : « إن كان من حديثى » ثم أباح له أن يكتب ، على أن الأساس فى الحفظ القلب ، ويستعان بالكتابة معه « ثم استعن بيدك مع قلبك » .

بيد أن النصوص التى صرحت بالنهى عن الكتابة فى أول الأمر ظلت محفوظة ، ونقلها السلف على أنها جزء مما تلقوه عن رسول الله ﷺ ، والنصوص التى حثت على الكتابة ظلت محفوظة أيضاً ، وهذا ما أوهم الاختلاف والتناقض بين النصوص .

ولما كانت الجهود متوافرة على حفظ السنة وتناقلها ، ثم اتجهت إلى الكتابة والجمع والتدوين ، فقد ظهر من الأئمة من ينكر الكتابة ـــ التى ستقضى على ملكة الحفظ وتنقل الحديث من الحفظ فى الصدور إلى الكتابة فى السطور ، ولا شك أن ما فى الصدور أقرب إلى العمل وأبلغ فى التأثير ـــ ويدعو إلى الحفظ والتلقى ، غير منكرين قدرها وفائدتها فى الحفاظ على النص واللفظ ، وأنها حصن من الضياع ، لكنهم ينكرونها إذا أدت إلى الاعتماد على المكتوب ، وأهمل الحفظ . ولذا يقول أبو سعيد : « احفظوا كما كنا نحفظ »(٢) .

وفى نفس الوقت كان هناك من يدعو إلى الكتابة ، باعتبار أنها أبلغ فى الحفظ وآمن من الخطأ والضياع ، وهؤلاء لا ينكرون قدر الحفظ وفائدته ، ويحثون عليه مع الكتابة وعليه فالفريقان يلتقيان معاً إذا سار الحفظ مع الكتابة جنباً إلى جنب .

وكأن الله سبحانه هيأ للأمة من يدعوها إلى الحفظ ، ومن يدعوها إلى الكتابة ، ليجتمع للسنة كل عوامل الحفظ ، من التسجيل فى السطور ، والحفظ فى الصدور .

---

(١) أخرجه الدارمى فى المقدمة باب من رخص فى كتابة العلم ١٠٣/١ ، ١٠٤ رقم ٤٩١ .

(٢) جامع بيان العلم ١ / ٧٦ ، ٧٧ . والمحدث الفاصل ص ٣٧٩ ، وتقييد العلم ص ٣٦ ، ٣٧ وسيأتى بتمامه .

وجاء بعض الأئمة فوضعوا نصوص النهى مع رأى من أنكر الكتابة، ونصوص الإذن بالكتابة مع رأى من حثّ عليها، وصوروا أن الأمة انقسمت إلى معسكرين متصارعين. وليس الأمر كما زعموا، وإنما لكل وجهة، وهاك الأمر بالتفصيل والله وحده المستعان وهو ولى التوفيق والهدى.

النهى عن الكتابة :

١ ـــ روى أبو سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال : « لا تكتبوا عنى، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه » (١).

٢ ـــ عن أبى سعيد الخدرى قال : استأذنا النبى ﷺ فى الكتابة فلم يأذن لنا(٢).

٣ ـــ روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نكتب الأحاديث فقال : ما هذا الذى تكتبون ؟ قلنا أحاديث نسمعها منك. قال : « كتاب غير كتاب الله ؟ أتدرون ؟ ما ضل الأمم قبلكم إلّا بما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله تعالى » (٣).

٤ ـــ عن عبد المطلب بن عبد الله بن حنطب قال : دخل زيد بن ثابت على معاوية فسأله عن حديث، فأمر إنساناً أن يكتبه، فقال له زيد : إن رسول الله ﷺ أمرنا ألّا نكتب شيئاً من حديثه، فمحاه(٤).

وذهب إلى النهى عن الكتابة جمع من الصحابة والتابعين منهم :

١ ـــ أبو سعيد الخدرى ـــ فعن أبى نضرة قال : قيل لأبى سعيد لو اكتتبنا الحديث ؟ فقال : لا نُكْتبكم، خذوا عنا كما أخذنا عن نبينا ﷺ. وعنه من طريق آخر : « أتريدون أن تجعلوها مصاحف ؟ إن نبيكم ﷺ كان

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذى فى العلم، باب فى كراهية كتابة العلم ٧ / ٤٢٧، وأخرجه الدارمى فى باب من لم ير كتابة الحديث ١ / ٩٨، والرامهرمزى فى المحدث الفاصل ص ٣٧٩، والخطيب فى تقييد العلم ص ٣٢، ٣٣. والقاضى عياض فى الإلماع ص ١٤٨.

(٣) أخرجه الخطيب فى تقييد العلم ص ٣٤. وفيه زيادة على ما هنا.

(٤) أخرجه أبو داود فى العلم ـــ باب كتابة العلم ١٠ / ٨٠، وأحمد ٥ / ١٨٢، وابن عبد البر فى جامع بيان العلم ١ / ٧٦، والخطيب فى التقييد ص ٣٥، والقاضى عياض فى الإلماع ١٤٨.

يحدثنا فنحفظ ، فاحفظوا كما كنا نحفظ » . وعنه من طريق آخر: «أردتم أن تجعلوه قرآناً ؟ لا ، لا ، ولكن خذوا عنا كما أخذنا عن رسول الله ﷺ »(١).

٢ ــ أبو هريرة ــ روى عنه أنه قال : نحن لا نَكْتُب ولا نُكْتِب »(٢)، بفتح نون الفعل الأول ، وضم نون الفعل الثاني . وروى عن سعيد بن أبي الحسن قال : « لم يكن من أصحاب النبي ﷺ أكثر من أبي هريرة حديثاً عن رسول الله ﷺ . وإن مروان زمن هو على المدينة أراد أن يكتب حديثه، فأبى ، وقال : « ارووا كما كنا نروى » فلمّا أبى عليه تغفله ، فأقعد له كاتباً لَقِناً ثَقِفاً ودعاه ، فجعل أبو هريرة يحدثه ويكتب الكاتب ، حتى استفرغ حديثه أجمع ، قال : ثم قال مروان : تعلم أنّا قد كتبنا حديثك أجمع ؟ قال : « وقد فعلتم ؟ قال : نعم . قال : فاقرءوه عليّ إذاً ، قال : فأقرؤوه عليه ، فقال أبو هريرة : أما إنكم قد حفظتم ، وإن تطعنى تمحه . قال : فمحاه»(٣).

٣ ــ ابن مسعود ــ روى عن عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه قال : أصبت أنا وعلقمة صحيفة فانطلق معى إلى ابن مسعود بها وقد زالت الشمس أو كادت تزول ، فجلسنا بالباب ، ثم قال للجارية انظرى من بالباب ؟ فقالت : علقمة والأسود . فقال : ائذنى لهما ، فدخلنا . فقال : كأنكما قد أطلتما الجلوس ؟ قلنا : أجل . قال فما منعكما أن تستأذنا ؟ قلنا : خشينا أن تكون نائماً . قال : ما أحب أن تظنوا بى هذا ، إن هذه ساعة كنا نقيسها بصلاة الليل ، فقلنا : هذه صحيفة فيها حديث حسن ، فقال : يا جارية هاتى بطشت واسكبى فيه ماء . قال : فجعل يمحوها بيده ويقول ﴿ **نحن نقص عليك أحسن القصص** ﴾(٤) فقلنا انظر فيها ، فإن فيها حديثاً عجيباً ، فجعل يمحوها ويقول : « إن هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره ، قال أبو عبيد ــ أحد أفراد السند ــ يرى أن هذه الصحيفة أخذت من أهل الكتاب ، فلهذا كره عبد الله النظر فيها .

---

(١) جامع بيان العلم ١ / ٧٦ ، ٧٧ ، المحدث الفاصل ص ٣٧٩ ، تقييد العلم ص ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) جامع بيان العلم ١ / ٧٩ ، والتقييد ص ٤٢ .

(٣) تقييد العلم ص ٤١ مستدرك ٣ / ٥٠٩ .

(٤) جزء من الآية رقم ٣ من سورة يوسف .

وعن سليمان بن الأسود المحاربى قال : كان ابن مسعود رضى الله عنه يكره كتابة العلم[1] .

٤ — ابن عمر — روى عن سعيد بن جبير أنه قال : كتبت إلى أهل الكوفة مسائل ألقى فيها ابن عمر ، فلقيته فسألته عن الكتاب ، ولو علم أن معى كتاباً فكانت الفيصل بينى وبينه[2] .

٥ — ابن عباس — روى طاووس عن ابن عباس أنه قال : « إنّا لا نَكْتُب العلم ولا نُكْتبه »[3] . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه كان ينهى عن كتابة العلم ، وقال : إنما ضلّ من كان قبلكم بالكتب[4] .

٦ — الشعبى — روى عنه أنه قال : ما كتبت سواداً فى بياض ، وما سمعت من رجل حديثاً فأردت أن يعيده علىّ ، ولقد نسيت من الأحاديث ما لو حفظها إنسان كان بها عالماً[5] .

٧ — الضحاك — روى عنه أنه قال : « يأتى على الناس زمان يكثر فيه الأحاديث حتى يبقى المصحف بغباره لا يُنظر فيه[6] .

٨ ، ٩ ، ١٠ — منصور بن المعتمر ، ومغيرة ، والأعمش — روى عن إسحاق ابن إسماعيل الطالقانى قال : قلت لجرير — يعنى ابن عبد الحميد — أكان منصور — يعنى ابن المعتمر — يكره كتاب الحديث ؟ قال : نعم ، منصور ومغيرة والأعمش كانوا يكرهون كتاب الحديث[7] .

الرخصة فى الكتابة :

١ — روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أنه قال : كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه فنهتنى قريش ، وقالوا تكتب كل شىء سمعته من رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ بشر

---

(١) جامع بيان العلم ١ / ٧٨ ، تقييد العلم ص ٣٨ ، ٣٩ وراجع فى تقييد العلم هذا الموضع وما بعده .

(٢) جامع بيان العلم ١ / ٧٩ ، تقييد العلم ص ٤٣ ، ٤٤ ، المحدث الفاصل ص ٣٧٩ .

(٣) جامع بيان العلم ١ / ٧٧ ، تقييد العلم ص ٤٢ .

(٤) جامع بيان العلم ١ / ٧٨ ، تقييد العلم ص ٤٣ .

(٥) جامع بيان العلم ١ / ٨١ .

(٦) جامع بيان العلم ١ / ٧٨ .

(٧) جامع بيان العلم ١ / ٨١ ، تقييد العلم ص ٤٨ .

يتكلم فى الغضب والرضا ؟ فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأومأ بأصبعه إلى فيه وقال : اكتب ، فوالذى نفسى بيده ما خرج منه إلَّا حق(١) .

٢ ـــ روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : « ما من أصحاب النبى ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه منى ، إلَّا ما كان من عبد الله بن عمرو ، فإنه كان يكتب ولا أكتب(٢) .

٣ ـــ عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « قيِّدوا العلم ، قلت : وما تقييده ؟ قال : كتابته(٣) .

٤ ـــ عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قيِّدوا العلم بالكتاب »(٤) .

٥ ـــ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان رجل يشهد حديث النبى ﷺ فلا يحفظه فيسألنى فأحدثه فشكا قلة حفظه إلى رسول الله ﷺ فقال له النبى ﷺ : « استعن على حفظك بيمينك »(٥) يعنى الكتاب .

(١) أخرجه الحاكم ١ / ١٠٤ ، ١٠٥ وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأخرجه أبو داود فى العلم باب كتابة العلم ١٠ / ٧٩ والدارمى باب من رخص فى كتابة العلم ١ / ١٠٣ ، وهو فى تقييد العلم ص ٧٤ ، ٨٢ ، وجامع بيان العلم ١ / ٨٥ ، والمحدث الفاصل ص ١٦٤ .

(٢) أخرجه البخارى فى العلم باب كتابة العلم ١ / ٢٠٦ ، والترمذى فى العلم باب الرخصة فيه أى كتابة الحديث ـــ ٧ / ٤٢٩ وقال حسن صحيح ، وأحمد فى مسنده ٢ / ٢٤٨ ، والدارمى باب من رخص فى كتابة العلم ١ / ١٠٧ وهو فى جامع بيان العلم ١ / ٨٤ ، وتقييد العلم ٨٢ ، ٨٣ .

(٣) أخرجه الحاكم ١ / ١٠٦ وانتقده الذهبى بأن ابن المؤمل ضعيف ، وذكره فى مجمع الزوائد ١ / ١٥٢ وعزاه للطبرانى فى الكبير والأوسط ، وفيه عبد الله بن المؤمل وثقه ابن معين وابن حبان ، وقال ابن سعد : ثقة قليل الحديث ، وقال الإمام أحمد : أحاديثه مناكير . وهو فى تقييد العلم ص ٦٨ ، والمحدث الفاصل ص ٣٦٤ .

(٤) أخرجه فى المحدث الفاصل ص ٣٦٨ وتقييد العلم ص ٧٠ ، وأخرجه فى المستدرك فى العلم باب قيدوا العلم بالكتاب جـ ١ ص ١٠٦ من كلام أنس ، وقال : وقد أسند من وجه غير معتمد .

(٥) أخرجه الترمذى فى العلم باب الرخصة فيه ٧ / ٤٢٧ وقال : ليس إسناده بذاك القائم . ونقل عن الإمام البخارى أن أحد رجال الإسناد وهو الخليل بن مرة منكر الحديث . وأخرجه الخطيب فى تقييد العلم باب ذكر ما روى عن النبى ﷺ أنه أمر الذى شكا إليه سوء الحفظ أن يستعين بالخط ، أخرجه من عدة طرق فى بعضها الخليل بن مرة الذى قال البخارى فيه : منكر الحديث ، وفى بعضها الخصيب بن جحدر وهو كذاب وأخرجه الخطيب أيضاً فى الجامع لأخلاق الراوى باب تدوين الحديث فى الكتب ١ / ٢٤٩ رقم ٥٠٣ وفى إسناده الخليل بن مرة .

٦ ــ روى عن رافع بن خديج أنه قال : قلنا يا رسول الله إنّا نسمع منك أشياء أفنكتبها ؟ قال : اكتبوا ولا حرج[١] .

٧ ــ عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : لما فتح الله على رسول الله ﷺ مكة ، قام فى الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين ، فإنها لا تحل لأحد كان قبلى ، وإنها أحلت لى ساعة من نهار ، وإنها لن تحل لأحد من بعدى ، فلا ينفر صيدها ، ولا يختلى شوكها ، ولا تحل ساقطتها إلا لمنشد . ومن قتل له قتيل فهو بخير النَّظَرَيْن : إما أن يُفْدى ، وإما أن يُقيد . فقال العباس : إلَّا الإذخر ، فإنا نجعله لقبورنا وبيوتنا . فقال رسول الله ﷺ : إلَّا الإذخر . فقام أبو شاهٍ ــ رجل من أهل اليمن ــ فقال اكتبوا لى يا رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : اكتبوا لأبى شاهٍ . قلت للأوزاعى : ما قوله اكتبوا لى يا رسول الله ؟ قال : هذه الخطبة التى سمعها من رسول الله ﷺ[٢] .

٨ ــ عن عبد الله بن عمرو بن العاص ــ رضى الله عنهما ــ قال : ما يرغبنى فى الحياة إلَّا الصادقة والوهط ، فأما الصادقة فصحيفة كتبتها من فى رسول الله ﷺ ، وأما الوهط فأرض تصدق بها عمرو بن العاص كان يقوم عليها[٣] .

وأجاز الكتابة جمع من الصحابة والتابعين ، من هؤلاء :

١ ــ أنس بن مالك ــ فعن هبيرة بن عبد الرحمن قال : كنا إذا أكثرنا على أنس بن مالك ألقى إلينا مخلاة فقال : هذه أحاديث كتبتها عن رسول الله ﷺ[٤] .

---

(١) ذكره فى مجمع الزوائد ١ / ١٥١ وعزاه للطبرانى فى الكبير ، وفيه أبو مدرك عن رفاعة بن رافع وعنه بقية ولم أر من ذكره . وهو فى تقييد العلم ص ٧٢ من عدة طرق فى جميعها أبو مدرك هذا . وذكره فى الجامع الكبير جـ ١ ص ١٣٧ وعزاه للحكيم والطبرانى فى الكبير وسمويه والخطيب فى تقييد العلم .

(٢) أخرجه البخارى فى اللقطة باب كيف تعرف لقطة أهل مكة ؟ جـ ٥ ص ٨٧ رقم ٢٤٣٤ وفى العلم باب كتابة العلم ١ / ٢٠٥ وفى غير ذلك . وأخرجه مسلم فى الحج باب تحريم مكة ٣ / ٥٠٥ والترمذى فى العلم باب الرخصة فيه ــ أى فى كتاب العلم ــ ٧ / ٤٢٨ . وأبو داود فى المناسك باب تحريم مكة ٥ / ٤٩٨ وفى الديات باب ولى العمد يأخذ الدية ١٢ / ٢٢٤ . وأحمد ٢ / ٢٣٨ .

(٣) أخرجه الدارمى باب من رخص فى كتابة العلم ١ / ١٠٥ ، وهو فى المحدث الفاصل ص ٣٦٦ وفى تقييد العلم ص ٨٥ .

(٤) المحدث الفاصل ص ٣٦٧ ، وتقييد العلم ص ٩٥ .

وروى ثمامة عن أنس : « أنه كان يأمر بنيه أن يقيدوا العلم بالكتاب »[1] .

٢ ــ عمر ــ فعن عبد الملك بن عبد الله بن أبى سفيان أنه سمع عمر ابن الخطاب يقول : « قَيِّدُوا العلم بالكتاب »[2] .

٣ ــ ابن عباس ــ فعن هارون بن عنترة عن أبيه عن ابن عباس أنه أرخص له أن يكتب[3] .

وروى عنه أيضاً أنه قال : « قَيِّدُوا العلم بالكتاب[4] .

وقال : « خير ما قُيِّد به العلمُ الكتاب[5] .

وقال : « قيِّدوا العلم ، وتقييده كتابه »[6] .

وفوق هذا فقد فعله ابن عباس . فعن عبيد الله بن أبى رافع قال : كان ابن عباس يأتى أبا رافع فيقول : ما صنع رسول الله ﷺ يوم كذا ؟ ما صنع رسول الله ﷺ يوم كذا ؟ ومع ابن عباس ألواح يكتب فيها »[7] .

٤ ــ أبو هريرة ــ عن بشير بن نهيك قال : « كنت أكتب ما أسمع من أبى هريرة ، فلما أردت أن أفارقه أتيته بكتابى فقلت : هذا ما سمعته منك . قال : نعم[8] .

وعن حسن بن عمرو بن أمية الضمرى قال : تحدثت عند أبى هريرة بحديث فأنكره فقلت : إنى قد سمعته منك فقال : إن كنت سمعته منى فهو مكتوب عندى ، فأخذنى بيدى إلى بيته فأرانا كتباً من حديث رسول الله ﷺ ، فوجد ذلك الحديث ، فقال : قد أخبرتك أنى إن كنت حدثتك به فهو مكتوب عندى [9] .

---

(١) أخرجه الحاكم ١ / ١٠٦ وقال : وقد أسند من وجه غير معتمد ، وهو فى الإلماع ص ١٤٧ ، وفى تقييد العلم ص ٩٦ ، ٩٧ ، وفى المحدث الفاصل ص ٣٦٨ ، وفى جامع بيان العلم ١ / ٨٧ .

(٢) أخرجه الحاكم ١ / ١٠٦ وذكر أنه صحيح ، وهو فى تقييد العلم ص ٨٨ وفى المحدث الفاصل ص ٣٧٧ وجامع بيان العلم ١ / ٨٦ وبين عبد الملك وعمر راو سقط من رواية الحاكم لكنه فى بقية الكتب وهو عمرو بن أبى سفيان عم عبد الملك .

(٣) جامع بيان العلم ١ / ٨٧ .

(٤) تقييد العلم ص ٩٢ ، وجامع بيان العلم ١ / ٨٦ .

(٥) تقييد العلم ٩٢ .

(٦) تقييد العلم ص ٩٢ .

(٧) تقييد العلم ص ٩١ .

(٨) جامع بيان العلم ١ / ٨٧ .

(٩) جامع بيان العلم ١ / ٨٩ المستدرك ٣ / ٥١١ .

٥ ــ أبو بكر ــ فعن أنس رضى الله عنه ــ أن أبا بكر كتب له فرائض الصدقة الذى سنّهُ رسول الله ﷺ[١] .

٦ ــ على بن أبى طالب ــ فعن إبراهيم بن يزيد التيمى عن أبيه قال : خطبنا على فقال : من زعم أن عندنا شيئاً نقرؤه ليس فى كتاب الله تعالى وهذه الصحيفة ــ قال صحيفة معلقة فى سيفه فيها أسنان الإبل وشىء من الجراحات ــ فقد كذب ، وفيها قال رسول الله ﷺ : « المدينة حرم ما بين عير إلى ثور ، فمن أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً ، ومن ادّعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً ، وذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم ، فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً »[٢].

وروى عن على رضى الله عنه قال : « قيدوا العلم ، قيدوا العلم »[٣] مرتين .

٧ ــ الشعبى ــ عامر بن شراحيل ، قال « الكتاب قيد العلم »[٤] .

٨ ــ سعيد بن المسيب ــ روى عن عبد الرحمن بن حرملة قال : « كنت سيئ الحفظ ، زاد الصيرفى ــ أحد الرواة ــ أو كنت لا أحفظ قال ثم اتفقا فرخص لى سعيد بن المسيب فى الكتاب »[٥] .

٩ ــ الأعمش ــ عن أبى جعفر الفراء قال : كان الأعمش يسمع من أبى إسحق ثم يجيء فيكتبه فى منزله[٦] .

---

(١) تقييد العلم ص ٨٧ .

(٢) أخرجه البخارى فى فضائل المدينة باب حرم المدينة ٤ / ٨١. وهو فى جامع بيان العلم ١ / ٨٥ وفى تقييد العلم ص ٨٨ . وستأتى بقية تخريجه ص ١١٣

(٣) تقييد العلم ص ٨٩ .

(٤) تقييد العلم ص ٩٩ ، مسند ابن الجعد رقم ٢٣٦٥ ، المحدث الفاصل ص ٣٧٥ .

(٥) جامع بيان العلم ١ / ٨٨ ، تقييد العلم ص ٩٩ .

(٦) المحدث ص ٣٨٤ ، تقييد العلم ص ١١٢ .

١٠ ــ سعيد بن جبير ــ روى عنه أنه قال : « كنت أسير بين ابن عمر وابن عباس فكنت أسمع الحديث منهما فأكتبه على واسطة الرحل حتى أنزل فأكتبه »(١) .

وقال : « كنت أكتب عند ابن عباس فى ألواحى حتى أملأها ، ثم أكتب فى نعلى » (٢) .

١١ ــ قتادة ــ قيل له نكتب ما نسمع منك ؟ قال : وما يمنعك أن تكتب وقد أخبرك اللطيف الخبير أنه يكتب ،: ﴿ **قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى** ﴾ (٣) .

هذه هى نصوص النهى عن الكتابة ، ونصوص الإذن بالكتابة ، ساقها بعض الأئمة على أنها متعارضة(٤) . ثم التمسوا سبيلا للخروج من هذا التعارض ، ولكن لا يخفى على متأمل أنها غير متعارضة ، فأحاديث الإذن بالكتابة ناسخة لأحاديث النهى . وما كان فى طوق الصحابة الذين كتبوا أن يكتبوا لو لم يعلموا ذلك . لكنهم لما علموا نسخ الحكم الأول بادروا بالكتابة ، بل إن الرسول ﷺ قد حثهم على ذلك ودفعهم إليه:«قيدوا العلم بالكتاب» وقد قدمت ذلك فى صدر الموضوع .

وبالنسخ قال جمع من الأئمة ، وها أنا ذا أذكر مجمل ما قالوه فى التوفيق بين هذه النصوص التى ظاهرها التعارض :

الوجه الأول : أن الإذن لمن خيف نسيانه ، والنهى لمن أُمِن نسيانه وخيف اتكاله على الكتابة .

الوجه الثانى : أن النهى كان حين خيف اختلاط الحديث بالقرآن ،

---

(١) تقييد العلم ص ١٠٣ .

(٢) تقييد العلم ص ١٠٢ ، المحدث الفاصل ص ٣٧١ .

(٣) مسند ابن الجعد ج ١ ص ٢٥؛ أثر رقم ١٠٧٨ ، المحدث الفاصل ص ٣٧٢ ، تقييد العلم ص ١٠٣ وما استدل به جزء من الآية رقم ٥٢ من سورة طه .

(٤) من الأئمة من قال بعدم التعارض بانياً رأيه على أن العمدة فى أدلة النهى عن الكتابة هو حديث أبى سعيد الخدرى . وهو يرى أنه معل ، والصواب وقفه على أبى سعيد « فتح البارى ١ / ٢٠٨ » .

والإذن حين أُمِن ذلك . قالهما النووى فى التقريب[1] وابن الصلاح فى مقدمته[2] .

الوجه الثالث : النهى عن كتابة الحديث مع القرآن فى صحيفة واحدة خوف الاشتباه، والإذن إذا كُتب كلّ على انفراده . قاله السيوطى فى التدريب[3] . والعراقى فى فتح المغيث[4] .

الوجه الرابع : أن النهى كان خاصاً بوقت نزول القرآن ، أما بعده فلا . قاله السيوطى فى التدريب أيضاً[5] .

الوجه الخامس : أن الإذن كان خاصاً بمن يتقن القراءة ، والنهى لمن لم يتقنها خشية الغلط ـــ قاله ابن قتيبة[6] .

الوجه السادس : أن النهى منسوخ بالإذن . قاله العراقى[7] .

قلت : أظهر الوجوه عندى هو الوجه السادس فليس فى حديث النهى تخصيص بحالة دون أخرى ، وليس فى حديث الإذن الإباحة فى حال دون حال ، ولشخص دون شخص ، وإنما حديث النهى عامّ « لا تكتبوا عنى » وحديث الإذن عام « اكتبوا لأبى شاه » « اكتب » « استعن بيمينك » وعليه فأظهر الأقوال هو القول بالنسخ .

والوجه الثانى مصير إلى الوجه السادس . فإن النهى كان فى فترة الوحى الأولى ، فكان أسلوب القرآن لم يتمرسه المسلمون ، فلم يصرح لهم بالكتابة ، فما أن أدركوا أسلوبه ، وفهموا الفرق بينه وبين أسلوب البشر ، إلّا أباح لهم الرسول ﷺ الكتابة .

---

(١) ج ١ ص ٦٧ مع التدريب .
(٢) ص ٢٠٣ .
(٣) ج ٢ ص ٦٧ .
(٤) ٣ / ١٨ .
(٥) ٢ / ٦٧ .
(٦) تأويل مختلف الحديث ص ٢٨٧ .
(٧) فتح المغيث ٣ / ١٨ .

أما كون بعض الصحابة والتابعين رفض الكتابة ، ودعا إلى الحفظ فليس هذا مصيراً منهم إلى عدم النسخ ، وإلّا لاحتجوا بالحديث ، ولم يقع هذا من أحدهم . وإنما رفضوا الكتابة خشية أن يوجد كتاب مع كتاب الله فيختلط هذا بهذا ، أو خشية الاتكال على الكتابة وإهمال الحفظ ، مقدرين قدر الكتابة فاهمين مزيتها .

ولذا نجد فى كلام بعض الناهين عن الكتابة دعوة أيضاً إلى الكتابة من ذلك :

ابن عباس ، فهو يقول : « نحن لا نَكْتُب العلم ولا نُكتبه »ثم يقول : « قيدوا العلم بالكتاب » .

بل إن أبا سعيد الخدرى وهو الـــذى روى أصح حديث فى باب النهى عن الكتابة يكتب أيضاً فعن أبى المتوكل عنه قال : ما كنا نكتب شيئاً غير القرآن والتشهد(١) . يقول الخطيب(٢) بعد ذكر هذا الأثر عن أبى سعيد ــ « وأبو سعيد هو الذى روى عن رسول الله ﷺ قال : « لا تكتبوا عنى سوى القرآن ، ومن كتب عنى غير القرآنفليمحه » ثم يخبر أنهم كانوا يكتبون القرآن والتشهد ، وفى ذلك دليل على أن النهى عن كتب ما سوى القرآن إنما كان على الوجه الذى بيناه ، من أن يضاهى بكتاب الله تعالى غيره ، وأن يُشْتغل عن القرآن بسواه ، فلما أمن ذلك ودعت الحاجة إلى كَتْب العلم لم يكره كتبه ، كما لم تكره الصحابة التشهد ، ولا فرق بين التشهد وبين غيره من العلوم ، فى أن الجميع ليس بقرآن ، ولن يكون كتب الصحابة ما كتبوه من العلم ، وأمروا بكتبه إلّا احتياطاً ، كما كان كراهتهم لكتبه احتياطاً والله أعلم .

وقال أبو عمر بن عبد البر : من كره كتابة العلم إنما كرهه لوجهين : أحدهما ألّا يَتَّخِذَ مع القرآن كتاباً يضاهى به ، ولئلا يتكل الكاتب على ما كتب ، فلا يحفظ فَيَقِلّ الحفظ كما قال الخليل :

ليس بعلم ما حوى القمطر ما العلم إلّا ما حواه الصدر

---

(١) تقييد العلم ٩٣ .

(٢) تقييد العلم ص ٩٣ .

ثم قال : والذين كرهوا الكتاب كابن عباس والشعبى وابن شهاب والنخعى وقتادة ، ومن ذهب مذهبهم ، وجبل جبلتهم ، كانوا قد طُبعوا على الحفظ ، فكان أحدهم يجتزئ بالسمعة ، ألا ترى ما جاء عن ابن شهاب أنه كان يقول : إنى لأمر بالبقيع فأسد آذانى مخافة أن يدخل فيها شيء من الخنا ، فوالله ما دخل أذنى شيء قط فنسيته . وجاء عن الشعبى ونحوه وهؤلاء كلهم عرب ، وقال النبى ﷺ : « نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب »[1] وهذا مشهور أن العرب قد خصت بالحفظ ، كان أحدهم يحفظ أشعار بعض فى سمعة واحدة ، وقد جاء أن ابن عباس رضى الله عنه حفظ قصيدة عمر بن أبى ربيعة :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجر

فى سمعة واحدة على ما ذكروا ، وليس أحد اليوم على هذا . ولولا الكتاب لضاع كثير من العلم ، وقد أرخص رسول الله ﷺ فى كتاب العلم ، ورخص فيه جماعة من العلماء ، وحمدوا ذلك ، ونحن ذاكروه بعد هذا بعون الله إن شاء الله[2] .

ثم قال : وقد دخل على إبراهيم النخعى شيء فى حفظه لتركه الكتاب . وذكر الحلوانى قال : حدثنا معاوية بن هشام وقبيصة قالا : حدثنا سفيان عن منصور قال : كان إبراهيم يحذف الحديث ، فقلت له : إن سالم بن أبى الجعد يتم الحديث قال له : إن سالماً كتب ، وأنا لم أكتب .

قال أبو عمر : فهذا النخعى مع كراهيته لكتاب الحديث قد أقر بفضل الكتاب أ . هـ بتصرف يسير[3] .

وقال الرامهرمزى : « قد ذكرنا فى وجوب الكتاب ماورد عن رسول الله ﷺ ، ثم عن علىٍّ وعمر وجابر وأنس ، ومن يليهم من كبراء التابعين كالحسن وعطاء وطاووس وسعيد بن جبير وعروة بن الزبير ومن بعدهم من أهل

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما . وراجع موضوع الصحابة « قوة ذاكرتهم » .
(٢) ذكره فى « باب ذكر الرخصة فى كتاب العلم » وقد اقتبست منه .
(٣) جامع بيان العلم جـ ١ ص ٨٢ ــ ٨٤ .

العلم والحديث لايضبط إلا بكتاب بالمقابلة والمدارسة والتعهد والمذاكرة والسؤال والفحص عن الناقلين والتفقه بما نقلوه.

وإنما كره الكتاب من كره من الصدر الأول لقرب العهد وتقارب الإسناد ، ولئلا يعتمده الكاتب فيهمله ، أو يرغب عن تحفظه والعمل به ، فأما والوقت متباعد ، والإسناد غير متقارب ، والطرق مختلفة ، والنقلة متشابهون ، وآفة النسيان معترضة والوهم غير مأمون ، فإن تقييد العلم بالكتاب أولى وأشفى ، والدليل على وجوبه أقوى ، وحديث أبي سعيد: « حرصنا أن يأذن لنا رسول الله ﷺ في الكتاب فأبى » أحسب أنه كان محفوظاً في أول الهجرة ، وحين كان لا يؤمن الاشتغال به عن القرآن »(١) أ . هـ .

ثم قال — الرامهرمزي — : « وإنما نقول إن الأَوْلَى بالمُحَدِّث ، والأحوط لكل راوٍ أن يرجع عند الرواية إلى كتاب ، ليسلم من الوهم »(٢).

ثم ساق العديد من الأمثلة ، ليبين أن عدم الكتابة يورث الخطأ في الرواية . أذكر من هذه الأمثلة مثالين :

١ — أخرج الرامهرمزي بإسناده إلى يحيى بن سعيد ، عن عبيد الله ، عن نافع ، عن ابن عمر أنه كان يجمع بين المغرب والعشاء إذا جَدّ به السير ، بعد ما يغيب الشفق ويزعم أن النبي ﷺ كان يجمع بينهما . قال يحيى : حدثت بهذا الحديث ست عشرة سنة بمكة ، فكنت أقول قبل أن يغيب الشفق ، ثم نظرت في كتابي ، فإذا هو بعد ما يغيب الشفق(٣) .

٢ — أخرج الرامهرمزي عن موسى بن زكريا ، ثنا(٤) الحسن بن قزعة ، ثنا الفضيل ابن عياض ، عن ليث ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : كان رسول الله ﷺ ربما يقرن شعبان ورمضان . قال الحسن : فلقيني فضيل بعد أيام فقال : اجعل مكان نافع طلحة(٥) .

---

(١) المحدث الفاصل ص ٣٨٥ .

(٢) المحدث الفاصل ص ٣٨٨ وما بعدها .

(٣) المحدث الفاصل ص ٣٨٨ .

(٤) جرت عادة المحدثين أن يختصروا كلمة « حدثنا » فيكتبوها « ثنا » كما هنا ، أو « نا » .

(٥) المحدث الفاصل ص ٣٩٢ . والمعنى أن الحسن أخطأ في السند ، فأبدل رجلاً مكان رجل ، وذلك بسبب عدم الكتابة .

وقال القاضى عياض : وروى كراهة ذلك — كتابة الحديث — عن أبى موسى وابن عمر وأبى سعيد الخدرى وجماعة بعدهم لذلك — أحاديث النهى عن الكتابة — ومخافة الاتكال على الكتاب ، وترك الحفظ ، ولئلا يكتب شىء مع القرآن ، ومنهم من كان يكتب فإذا حفظ محا ، والحال اليوم داعية للكتابة ، لانتشار الطرق ، وطول الأسانيد ، وقلة الحفظ ، وكلال الأفهام(١) .

السنة بعد عصر التابعين :

انتهى عصر الصحابة وعصر التابعين والبعض يكتب السنة مطلق كتابة ، دون ترتيب أو تبويب ، وهؤلاء الذين يكتبون كانوا يحفظون أيضاً . والبعض الآخر يحفظ السنة فى صدره ، ويُحذِّر الكاتبين من الاعتماد على الكتابة ، فإن المحفوظ فى الصدر قريب من العمل ، بعيد عن التحريف والتصحيف .

فلما كان عصر تابعى التابعين — وذلك فى منتصف المائة الثانية — قوى رأى الفريق الأول ، وأصبح المعتمد عليه ، وأجمع المسلمون على جواز الكتابة .

يقول الحافظ العراقى : أختلف المسلمون والتابعون فى كتابة الحديث ... ثم أجمع المسلمون على جوازها ، وزال ذلك الخلاف(٢) .

وكذا قال عياض(٣) وابن الصلاح(٤) .

وقال السخاوى : « لكن الإجماع منعقد من المسلمين — كما حكاه عياض — فى المائة الثانية — كما زاده الذهبى — على الجواز بعدهم ، أى بعد الصحابة والتابعين ، بالجزم فى حكايته بدون تردد ، بحيث زال ذلك الخلاف ، كما أجمع المتقدمون والمتأخرون على جوازها فى القرآن » (٥) .

---

(١) الإلماع ص ١٤٩ .
(٢) فتح المغيث ٣ / ١٧ .
(٣) الإلماع ١٤٧ .
(٤) المقدمة ص ٢٠٤ .
(٥) فتح المغيث ٢ / ١٤٢ . وفيه خير كثير فراجعه

طبيعة الكتابة والباعث عليها :

لم يكن الغرض من الكتابة فى هذه المرحلة هو تأليف موسوعة تشمل السنة بأسرها ، وإنما كان الغرض منها حفظ الحديث ، والأمن من ضياعه ، بحيث يَحْفَظُ كلُّ شخص ما يسمعه ، ويكتب كل — أو بعض — ما يحفظه ، حتى لا يضيع بعد ذلك ، أو يعتريه تحريف .

وعليه فيمكن تلخيص بواعث الكتابة فيما يلى :

١ — تعذر الحفظ : فإذا كان أحدهم سيئ الحفظ ، فإنه يحرص على الكتابة ليحفظ من الكتاب .

من ذلك ما روى عن حرملة قال : كنت سيئ الحفظ فرخص لى سعيد ابن جبير فى الكتاب(١) ، وعن شراحيل أبى سعد قال : دعا الحسن بن على بنيه وبنى أخيه فقال : يا بنى وبنى أخى إنكم صغار قوم ، يوشك أن تكونوا كبار آخرين ، فتعلموا العلم ، فمن لم يستطع منكم أن يرويه — أو قال يحفظه — فليكتبه ، وليضعه فى بيته(٢) .

وكذا إذا كان النص نفسه مما يتعذر حفظه ، كأن يكون الحديث طويلاً ، أو مشتملاً على أرقام عدديّة كأحاديث الصدقات والديات والفرائض . كما روى عن عبد الله قال : قلنا يا رسول إنا نسمع منك أشياء لا نحفظها ، أفلا نكتبها ؟ قال : بلى فاكتبوها(٣) .

٢ — المحافظة على اللفظ : فكانوا يكتبون ليحفظوا نفس اللفظ .

فعن منصور قال : قلت لإبراهيم : سالم بن أبى الجعد أتم حديثاً منك ؟ قال : إن سالماً كان يكتب (٤) .

وعن معمر قال : قدمت على يحيى ين اليمان فحدثته بحديث لأستخرج

---

(١) المحدث ص ٣٧٦ ، التقييد ص ٩٩ ، جامع بيان العلم ١ / ٨٨ .

(٢) أخرجه الدارمى . باب من رخص فى كتابة العلم ١ / ١٠٧ ، وهو فى التقييد ص ٩١ ، والكفاية ص ٣٤٠ .

(٣) المحدث ص ٣٦٤ ، التقييد ص ٧٤ .

(٤) المحدث ص ٣٧٤ ، التقييد ص ١٠٩ .

منه حديثاً فلما قمت من عنده قال : اكتب لى حديث كذا وكذا . قلت له : يا أبا نصر ألستم تكرهون كتابة الحديث ؟ فقال : اكتبه لى فإنك إن لم تكتبه لى فقد ضيعتُ أو أخطأتُ[١] .

وعن شعبة قال : إذا رأيتمونى أثج الحديث ـــ أى أقرؤه متوالياً سريعاً من ثج الماء إذا صبه ـــ فاعلموا أنى تحفظته من كتاب[٢] . وقال أحمد ويحيى : كل من لم يكتب العلم لا يؤمن عليه الغلط[٣] .

٣ ـــ المحافظة على العلم من الضياع : فكانوا يحفظون ، ومع ذلك يكتبون ، خشية أن يعترى الذهن نسيان ، فإن الخاطر يغفل ، والقلم يحفظ ، والحافظ يموت ، والقرطاس يبقى ، ولذا يقول الحسن : ما قُيِّدَ العلمُ بمثل الكتاب[٤] . وقال الشعبى وغيره : الكتاب قيد العلم[٥] وقال : لا تَدَعَنّ شيئاً من العلم إلَّا كتبته فهو خير لك من موضعه من الصحيفة ، وإنك تحتاج إليه يوماً ما[٦] ـــ وقال أبو قلابة : الكتاب أحب إلىّ من النسيان[٧] .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل المدينة : أن انظروا حديث رسول الله ﷺ فاكتبوه ، فإنى خفت دروس العلم ، وذهاب أهله[٨] .

آثار هذه الحقبة :

ولقد أسفرت هذه الحقبة عن عدد من الصحف تُعَدُّ دليلاً على كتابة السنة فى عهد الرسول ﷺ ـــ بل منها ما أمر ﷺ بكتابته ، ومهره بخاتمه الشريف ـــ وفى عهد الصحابة والتابعين ، كما أنها كانت عاملًا مساعداً مع الحفظ فى الصدور على حفظ السنة وسلامتها .

---

(١) جامع بيان العلم ١ / ٩٢ ، المحدث ص ٣٧٣ ، التقييد ص ١١٠ .
(٢) جامع ١ / ٩٠ .
(٣) جامع ١ / ٩١ .
(٤) المحدث ص ٣٧٥ ، والتقييد ص ١٠١ .
(٥) المحدث ص ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، التقييد ص ٩٩ .
(٦) التقييد ص ١٠٠ .
(٧) جامع بيان العلم ١ / ٨٧ ، التقييد ص ١٠٣ .
(٨) أخرجه الدارمى ـــ باب من رخص فى كتابة العلم ١ / ١٠٤ ، وهو فى التقييد ص ١٠٦ .

وهذه الصحف منها ما أمر الرسول ﷺ بكتابته ، ومنها ما كتبه الصحابة مع علم رسول الله ﷺ بذلك ، ولسوف أكتفى بذكر بعض ذلك :

— فمن الصحف التى أمر الرسول ﷺ بكتابتها كتابة ﷺ بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار وبين أهل المدينة ، والذى ذكره ابن هشام فى كتابه « سيرة النبى ﷺ » ويقع فى ورقتين[1] .

وأخرج أبوعبيد القاسم بن سلام صدره فى كتابه «الأموال»[2] وفيه عن ابن شهاب أن رسول الله ﷺ كتب بهذا الكتاب:« هذا كتاب من محمد النبى رسول الله ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ، وأهل يثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم ، فحل معهم ، وجاهد معهم ، أنهم أمة واحدة دون الناس المهاجرين من قريش على رباعتهم ، يتعاقلون بينهم معاقلهم الأولى ، وهم يَفُكُّون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين .. إلخ الحديث » ، وهو حديث طويل فى المعاقل .

وأيضاً كتابه ﷺ فى الصدقات والديات والفرائض والسنن ، الذى أرسله إلى عمرو بن حزم وغيره ، وقد أخرجه أبو القاسم فى كتابه الأموال[3] . ويقع فى أكثر من ورقة ، وهذا صدره : أخرج أبو عبيد بإسناده عن محمد بن عبد الرحمن الأنصارى قال : لما استخلف عمر بن عبد العزيز أرسل إلى المدينة يلتمس كتاب رسول الله ﷺ فى الصدقات ، وكتاب عمر ابن الخطاب فوجد عند آل عمرو بن حزم كتاب رسول الله ﷺ إلى عمرو بن حزم فى الصدقات ، ووجد عند آل عمرو كتاب عمر فى الصدقات ، مثل كتاب رسول الله ﷺ . قال فنسخا له ، قال فحدثنى عمرو بن هرم : أنه طلب إلى محمد بن عبد الرحمن أن ينسخه ما فى ذينك الكتابين ، فنسخ له ما فى هذا الكتاب من صدقة الإبل والبقر والغنم ، والذهب والوَرِق ، والتمر أو الثَّمَر ، والحب والزبيب : أن الإبل ليس فيها شىء حتى تبلغ خمساً ، فإذا بلغت خمساً ففيها شاة ، حتى تبلغ تسعاً ، فإذا زادت واحدة ففيها شاتان .... إلخ هذا الكتاب .

---

(1) ج ٢ ص ١١٩ .

(2) ص ١١٦ .

(3) ص ٤٤٧ .

وأيضاً كتابه ﷺ الذى كان عند الإمام علىٌّ كرم الله وجهه والذى أخرجه الأئمة عنه وفيه : « هل عندكم كتاب ؟ قال : لا . إلّا كتاب الله ، أو فهم أعطيه رجل مسلم ، أو ما فى هذه الصحيفة ؟ قيل وما فى هذه الصحيفة ؟ قال : العقل ، وفكاك الأسير ، ولا يقتل مسلم بكافر » وفى رواية أخرى : « فإذا فيها المدينة حرام . . الحديث » .

ومن طريق ثالث فيها : « لعن الله من ذبح لغير الله » ومن طريق رابع : « فإذا فيها المؤمنون تتكافأ دماؤهم يسعى بذمتهم أدناهم » ومن طريق خامس : « فيها فرائض الصدقة » والجمع بين هذه الأحاديث أن الصحيفة كانت واحدة ، وكان جميع ذلك مكتوباً فيها ، فنقل كل واحد من الرواة عنه ما حفظه(١) .

ومنها كتابه ﷺ الذى وجد فى قائم سيفه فعن أبى جعفر محمد بن على قال : وُجِدَ فى قائم سيف رسول الله ﷺ صحيفة فيها مكتوب : ملعون من سرق تخوم الأرض . ملعون من تولى غير مواليه ، أو قال ملعون من جحد نعمة من أنعم عليه(٢) .

وقد اشتمل كتاب « مكاتيب الرسول ﷺ » لعلى بن حسين على الأحمدى على عدد كبير من كتبه ﷺ . وكذا كتاب « الأموال » لأبى عبيد القاسم بن سلام(٣)

ـــ أما الصحابة فقد كتب منهم عبد الله بن عمرو ، فعنه قال : « ما يرغبنى فى الحياة إلّا الصادقة والوهط ، فأما الصادقة فصحيفة كتبتها عن

---

(١) حديث صحيفته ﷺ تقدم مع شىء من تخريجه عند الكلام على الكاتبين من الصحابة ، وهذه تتمة تخريجه : البخارى فى العلم باب كتابة العلم ١ / ٢٠٤ ، وفى غير هذا الموضع ـــ مما هو مذكور فى نهاية الحديث ، ومسلم فى الحج باب فضل المدينة ٣ / ٥١٨ ، ٥١٩ ، والترمذى فى الديات باب ما جاء لا يقتل مسلم بكافر ٤ / ٦٦٨ وقال : حسن صحيح ، وأبو داود فى المناسك باب فى تحريم المدينة ٦ / ١٧ ، والنسائى فى القسامة باب سقوط القود من المسلم للكافر ٨ / ٢٠ .

(٢) جامع بيان العلم ١ / ٨٥ ، ٨٦ .

(٣) راجع ص ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٧ وغير ذلك .

رسول الله ﷺ ، وأما الوهط فأرض تصدق بها عمرو بن العاص كان يقوم عليها»(١) .

وذكر ابن الأثير أن عبد الله بن عمرو قال : « حفظت عن النبى ﷺ ألف مَثل » (٢) .

ــ وكتب أبو هريرة : فعن حسن بن عمرو بن أمية الضمرى قال تحدثت عند أبى هريرة بحديث فأنكره فقلت : إنى سمعته منك ، فقال : إن كنتَ سمعته منى فهو مكتوب عندى ، فأخذ بيدى إلى بيته فأرانا كتباً كثيرة من حديث رسول الله ﷺ ، فوجد ذلك الحديث ، فقال : قد أخبرتك أنى إن كنت حدثتك به فهو مكتوب عندى(٣) .

ــ وكتب أبو بكر : كتب لأنس فرائض الصدقة ، الذى سنه رسول الله ﷺ لما وجهه إلى البحرين ونصه : بسم الله الرحمن الرحيم هذه فريضة الصدقة التى فرض رسول الله ﷺ على المسلمين والتى أمر الله بها رسوله ، فمن سُئِلها من المسلمين على وجهها فليعطها ، ومن سئل فوقها فلا يعط ، فى أربع وعشرين من الإبل فما دونها ، من الغنم من كل خمس شاة ، فإذا بلغت خمساً وعشرين إلى خمس وثلاثين ففيها بنت مخاض أنثى ... إلخ الكتاب(٤) .

وكتب كتاباً إلى أهل بزاخة ، وقد ذكر أبو عبيد القاسم بن سلام هذا الكتاب فى كتابه « الأموال »(٥) .

ــ وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه : فلقد وجد ابنه عبد الله فى قائم سيفه صحيفة ، فيها « ليس فيما دون خمس من الإبل صدقة .. » إلخ(٦) .

---

(١) تقدم ص ١٠٥ .

(٢) أسد الغابة ٣ / ٣٤٩ . والمراد : الأحاديث التى شاعت على الألسنة فصارت مثلاً كقوله ﷺ: « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » وقوله: « الحرب خدعة » وعليه فليس هذا كل ما فى الصحيفة الصادقة .

(٣) جامع [illegible] العلم ١ / ٨٩ ، المستدرك ٣ / ٥١١ .

(٤) أخرجه البخارى فى الزكاة باب العرض فى الزكاة ٣/٣١٢ وفى باب زكاة الغنم ص ٣١٧ بتمامه وفى غير هذين الموضعين ، وأبو داود فى الزكاة ، باب زكاة السائمة ٤ / ٤٣١ ، والنسائى فى الزكاة باب زكاة الإبل ٥ / ١٣ وفى باب زكاة الغنم ص ١٩ .

(٥) ص ٢٥٤ .

(٦) الكفاية ص ٥٠٥ .

وكتب كتاباً فيه أنصبة الزكاة وأرسله إلى عماله[1] .

ــ وكتب عبد الله بن عباس إلى نجدة الحرورى كتاباً أجاب فيه على ما سأله عنه[2] .

ــ وكتب جابر بن عبد الله الأنصارى ، فلقد كانت له صحيفة اشتهرت بصحيفة جابر ، ورواها عنه تلاميذه ، وفيها قال قتادة : « لأنا لصحيفة جابر ابن عبد الله أحفظ منى لسورة البقرة[3] .

ــ ومما كتب فى هذه الفترة : « الصحيفة الصحيحة » كتبها همام بن منبه ــ زوج ابنة أبى هريرة ــ كتبها أمام أبى هريرة ، وهذه الصحيفة وصلتنا كما هى ، وتضم ثمانية وثلاثين ومائة حديث ، وقد أخرجها الإمام أحمد فى مسنده بنصها ، كما توجد منها مخطوطات فى المكتبات العامة[4] .

وهذه الصحف التى كتبت فى هذه الفترة قد استوعبتها كتب أئمة السنة المشهورة بيننا مثل « صحيح البخارى » و « صحيح مسلم » و « سنن أبى داود » و « سنن الترمذى » و « سنن النسائى » و « سنن ابن ماجه » و « مسند الإمام أحمد بن حنبل » وهو من أجمعها . ورغم استيعاب كتب الأئمة هذه الصحف فما زال الكثير منها موجوداً كما هو فى دور الكتب والوثائق .

وخلاصة القول أن السنة ظلت طيلة القرن الهجرى تحفظ فى الصدور ، وتكتب فى السطور للرجوع إلى المكتوب إذا أشكل لفظ ، وهذه المرحلة يمكن أن أسميها مرحلة الكتابة ، إذ أن السنة فيها كانت مكتوبة دون ترتيب أو تبويب ، وهذان جَدَّا فيما بعد ، وهو ما سأتحدث عنه تحت العنوان التالى :

---

(١) الأموال ص ٤٤٧ ، ٤٥٠ .

(٢) الأموال ص ٤١٨ .

(٣) تهذيب التهذيب ج ٨ ص ٣٥٣ .

(٤) منها نسخة بدار الكتب المصرية ، وأخرى بالظاهرية بدمشق ، وثالثة فى برلين بألمانيا . وقد حققت فى كلية أصول الدين جامعة الأزهر رسالة دكتوراه .

مرحلتا التدوين والتصنيف :

وهاتان المرحلتان شبه متداخلتين ، وإن كانت أولاهما أسبق ، وتبدأ مرحلة التدوين حينما أرسل عمر بن عبد العزيز إلى ولاته على الأمصار : « انظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه»[1]. وكان فيما كتب إلى أهل المدينة : « انظروا حديث رسول الله ﷺ فإنى خفت دروس العلم وذهاب أهله»[2] .

وكما وجّه كتباً إلى الأمصار ، فلقد وجّه كتاباً إلى الأئمة الأعلام ، فكتب إلى أمير المدينة أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وهو الذى قال فيه مالك : « لم يكن عندنا أحد بالمدينة عنده من علم القضاء ما كان عند أبى بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم ، وكان قاضياً ولاه عمر بن عبد العزيز ، وكتب إليه أن يكتب له العلم من عند عمرة بنت عبد الرحمن والقاسم بن محمد ، فكتبه له ولم يكن على المدينة أمير غير أبى بكر بن حزم وكان قاضياً : وجه إليه كتابه وفيه : « اكتب إلىّ بما ثبت عندك من الحديث عن رسول الله ﷺ ، وبحديث عمرة — بنت عبد الرحمن ابن سعد[3] — فإنى خشيت دروس العلم وذهابه » وفى رواية أخرى : انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ ، أو سنة ماضية ، أو حديث عمرة فاكتبه ، فإنى خفت دروس العلم وذهابه أهله[4] .

وكتب أيضاً إلى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى ، المتوفى سنة « ١٢٤ » والذى قال فيه أبو الزناد : « كنا نكتب الحلال والحرام ، وكان ابن شهاب يكتب كل ما سمع ، فلما احتيج إليه علمت أنه أعلم الناس»[5] .كتب إليه يأمره بجمع السنن ، ولذا قال : « أمَرَنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن ، فكتبناها دفتراً دفتراً ، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفتراً »[6] .

---

(١) قال فى الفتح ١ / ١٩٥ رواه أبو نعيم فى تاريخ أصبهان .
(٢) سنن الدارمى ١ / ١٠٤ التقييد ص ١٠٦ .
(٣) ترجمتها فى التهذيب ١٢ / ٤٣٨ .
(٤) تقييد ص ١٠٥ .
(٥) جامع بيان العلم ١ / ٨٨ .
(٦) جامع بيان العلم ١ / ٩١ .

وما أن صدر هذا الأمر من الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز إلَّا شمّر الأئمة عن ساعد الجد ، فلقد آن أوان جمع السنة بعد أن كانت مبعثرة ، صحيفة هنا وصحيفة هناك ، أحاديث يحفظها هذا ، وأحاديث يحفظها ذاك . وهذا الجمع وهذا التدوين كثيراً ما تمنَّوه ، وكثيراً ما آملوه . فبدأ جمع الصحف ونسخها ، وإرسال النسخ إلى الخليفة ، ومن عنده صحف نسخ منها ما يرسله إلى الخليفة . والخليفة يرسل إلى كل مصر[1] دفتراً وشهدت فترة خلافة عمر بن عبد العزيز ثم ما بعدها حركة علمية فى ميدان السنة أسفرت عن كتابة السنة وجمع كل ما كتب ــ وهو ما يعرف بالتدوين ــ ثم تبويب وتصنيف هذا الجمع من الحديث .

ومما يجدر التنبيه إليه أن فترة خلافة عمر بن عبد العزيز لم تكن انطلاقاً فى عالم التدوين فقط ، بل كانت مع ذلك انطلاقاً فى عالم التحديث والرواية ، فأمر الأئمة أن يحيوا مجالس التحديث فى المساجد ، فعن عكرمة قال : « سمعت كتاب عمر بن عبد العزيز يقول : أما بعد فآمر أهل العلم أن ينشروا العلم فى مساجدهم ، فإن السنة كانت قد أميتت»[2] .

وكان فيما كتبه أيضاً إلى أبى بكر بن حزم: « ولتفشوا العلم ، ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم ، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً »[3] .

أول من قام بالتدوين :

وإذا كان الأئمة قد امتثلوا أمر الخليفة ، فبدأوا يكتبون ما عندهم ، فإن بَدْأَهم فى التدوين كان جماعياً ، إذ بدأ الجميع عند صدور أمر الخليفة ، وعليه فالأولية ثابتة لهم جميعاً ، بيد أن بعض الكاتبين فى تاريخ السنة جعل المسألة خلافية . والأمر أيسر من أن يختلف فيه . فإن الأولية قد تثبت لأكثر من واحد . نعم يجوز أن تثبت الأولية فى كل إقليم على حدة ، وهذا لم يختلف فيه ، ووقع فيه التعدد أيضاً وهذه أمثلة من أوائل المدوِّنين :

---

(١) بلد .
(٢) المحدث الفاصل ١٥٣ .
(٣) أخرجه البخارى معلقاً ١ / ١٩٤ .

أوائل المدونين[1] :

ـــ عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج البصرى المتوفى سنة « ١٥٠ » وسفيان بن عيينة المتوفى سنة « ١٩٨ » بمكة .

ـــ مالك بن أنس « ١٧٩ » ومحمد بن إسحاق « ١٥١ »وابن أبى ذئب « ١٥٨ » بالمدينة المنورة .

ـــ والربيع بن صبيح « ١٦٠ » ، وسعيد بن أبى عروبة « ١٥٦ » وحماد ابن سلمة « ١٦٧ » بالبصرة

ـــ سفيان الثورى « ١٦١ » ، وزكريا بن أبى زائدة « ١٤٩ » وابن فضيل « ١٩٥ » ووكيع « ١٩٧ » بالكوفة .

ـــ معمر بن راشد « ١٥٣ » وخالد بن جميل « باليمن » .

ـــ الأوزاعى ـــ عبد الرحمن بن عمرو ـــ « ١٥٧ » والوليد بن مسلم « ١٩٤ » بالشام .

ـــ عبد الله بن المبارك « ١٨١ » بخراسان ومرو .

ـــ هشيم بن بشير « ١٨٣ » بواسط .

ـــ جرير بن عبد الحميد « ١٨٨ » بالرى .

ـــ عبد الله بن وهب « ١٩٧ » بمصر .

وهذا ما قاله الأئمة فى أوائل من دوّن الحديث ، بيد أن الباحث يتضح له أن هؤلاء لم يبدأوا معاً إذ أنهم لم يكونوا موجودين جميعاً عند صدور أمر الخليفة ، فليس من المعقول أن نثبت لهشيم بن بشير الذى ولد سنة « ١٠٤ » ولعبد الله بن المبارك الذى ولد سنة « ١١٨ » ، ولجرير بن عبد الحميد الذى ولد سنة « ١١٠ » ولعبد الله بن وهب الذى ولد سنة « ١٢٥ » ليس من المعقول أن نثبت لهؤلاء أولية فى التدوين كأولية الأئمة الذين تلقوا أمر الخليفة

---

(١) المحدث الفاصل ص ٦١١ ، توجيه النظر ص ٧ ، هدى السارى ص ٦ .

عمر بن عبد العزيز الذى توفى سنة « ١٠١ » من أمثال أبى بكر بن حزم الذى كان والياً على المدينة وصدر له كتاب خاص ، ومن أمثال ابن شهاب الزهرى الذى اشتهر عنه التدوين قبل صدور أمر الخليفة . فما أن صدر أمر الخليفة إلّا بادر بإرسال الكتب ، حتى كان أول من أرسل الكتب إلى الخليفة . فالأولى تضييق الدائرة عن هذا العدد وبخاصة أن التاريخ يساعد على ذلك .

بل إن الأخرى أن نبحث عمن ظهر عمله فى التدوين إلى الوجود أوّلاً ، فإن ذلك هو الجدير بالبحث عنه . ولو بحثنا عن ذلك لما كان هناك خلاف فى أنه ابن شهاب الزهرى ، فإنه أول من أرسل الدفاتر إلى الخليفة وأرسلها الخليفة إلى الأمصار ، ولذا يقول عبد العزيز بن محمد الدراوردى : أول من دون العلم وكتبه ابن شهاب(١) .

ويقول ابن شهاب عن نفسه : أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن ، فكتبناها دفتراً دفتراً ، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفتراً (٢) .

سمة التدوين والتصنيف فى هذه المرحلة :

عند بدء العلماء فى التدوين دونوا حديث رسول الله ﷺ فقط ، إذ كان من كلام الخليفة إليهم : ولا يقبل إلّا حديث رسول الله ﷺ(٣) فلما كان عصر التصنيف والذى لا يزال إلى الآن ، أخذ أشكالاً مختلفة ، بدأت بأنه ضم المرفوع والموقوف والمقطوع من الحديث ، فدون الأئمة أقوال الصحابة ، وأقوال التابعين مع حديث رسول الله ﷺ ، كما يتضح ذلك من موطأ الإمام مالك ، وكانوا يؤلفون كل باب على حدة ، ومنهم من ألف فى كل الأبواب ، ومنهم اقتصر على أبواب الأحكام فقط ، وظل الأمر على هذا ــ جمع أقوال الصحابة والتابعين مع حديث رسول الله ﷺ ــ إلى نهاية القرن الثانى(٤) .

---

(١) جامع بيان العلم ١ / ٨٨ .
(٢) جامع بيان العلم ١ / ٩١ .
(٣) أخرجه البخارى ١ / ١٩٤ .
(٤) هدى السارى ص ٦ .

السنة فى القرن الثالث فما بعده :

فلما كان القرن الثالث رأى بعض الأئمة أن يفرد حديث رسول الله ﷺ خاصة ، وهو ما يعرف بالمسند ، فصنّف عبيد الله بن موسى العبسى الكوفى مسنداً . وصنف مسدد بن مسرهد البصرى مسنداً ، وصنف أسد بن موسى الأموى مسنداً ، وصنف نعيم بن حماد الخزاعى — نزيل مصر — مسنداً ، ثم اقتفى الأئمة بعد ذلك أثرهم . فقلّ إمام من الحفاظ إلّا وصنف حديثه على المسانيد ، كالإمام أحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه ، وعثمان بن أبى شيبة وغيرهم من النبلاء ، ومنهم من صنف على الأبواب وعلى المسانيد معاً كأبى بكر بن أبى شيبة(١) ، وظل البعض الآخر من الأئمة على طريقة التدوين على الأبواب ، وكثر التدوين فى هذه الفترة واتخذ نظماً وأسماء مختلفة منها « السنن ، المصنف ، المعجم ، الجامع ، الأطراف ، المستدرك ، المستخرج »(٢) .

ولم تقف جهودهم عند جمع الأحاديث وترتيبها ، وإنما تعدت ذلك إلى شرح الأحاديث واستنباط ما فيها ، والجمع بين ما ظاهره التعارض ، وبيان الناسخ والمنسوخ ، وذِكْر أسباب ورود الحديث ، وبيان حال كل حديث بدراسة إسناده ومتنه ، مما جعل علم الحديث من مفاخر الأمة الإسلامية كعلم أخذ حقه كما ينبغى ، وفق أصول فى غاية الدقة والكمال ، فلا تجد وجهاً من الوجوه إلّا وقد خدمت السنة منه ، ولا تخطر ببالك طريقة لخدمة السنة إلا وتجدالأئمة قد سلكوها .

خلاصة الباب :

ولعله بعد هذا العرض تكون قد اتضحت الحقائق التالية :

● كانت الذاكرة عند العرب أقوى وأنفع وسيلة لحفظ العلوم ، فلما أسلموا استفادوا بذاكرتهم هذه فى حفظ القرآن الكريم والسنة النبوية .

---

(١) هدى السارى ص ٦ .
(٢) راجع فى ذلك الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة « للكتانى » .

● كان العرب يرون أن المعلومات المحفوظة فى مأمن من الضياع ، والعمل بها ميسور ، أما المعلومات التى فى كتاب فعرضة للضياع بضياع الكتاب ، وهى بعيدة عن العمل بها .

●**على رغم قوة ذاكرة صدر الأمة وإعظامهم الحفظ فى الصدور إلا أنهم** كتبوا السنة النبوية ، فكانوا يحفظونها ويكتبونها ، أما الحفظ فللعمل ، وأما الكتابة فللرجوع إليها إذا أشكل لفظ .

● نهى ﷺ عن كتابة السنة أول الأمر حتى تتمرس الأمة أسلوب القرآن الكريم ، خشية اختلاط السنة به ، فلما اطمأن ﷺ لإدراكهم الفرق بين أسلوب القرآن الكريم وبين أسلوب السنة أباح لهم الكتابة .

● كتب ﷺ كثيراً من السنة ، وأقرّ الصحابة على الكتابة ، وحثّهم عليها ، وظهرت صحف كثيرة فى عهده ﷺ ، وفى عهد الصحابة فمن بعدهم .

● مرت السنة النبوية من حيث وضعها فى السطور بمراحل هى :

مرحلة الكتابة : وفيها كانت السنة تكتب دون ترتيب أو تبويب ، أو جمع الصحف المكتوبة فى شىء يجمعها ، وهذه المرحلة تشمل العهد النبوى ، وعهد الصحابة والتابعين .

مرحلة التدوين : وفيها كتبت السنة ، وجمع المكتوب فى شىء يجمعه ، ورتبت على نحو ما ، فمنهم من رتب على الموضوعات ، ومنهم من رتب على الصحابة ، ومنهم من رتب على غير ذلك .

مرحلة التصنيف : وفيها كتبت السنة مرتبة على نحو ما ، مع فوائد علمية أخرى ، كالجمع بين الناسخ والمنسوخ لبيان النسخ ، أو الجمع بين العام والخاص ، أو البيان والمبيَّن ، أو انتقاء المقبول من المردود .

● لم يخطئ الأئمة حينما قالوا: إن السنة دونت فى مطلع القرن الثانى الهجرى ، لأن هذا لا ينفى وجودها مكتوبة فى القرن الأول ، فهناك فرق بين الكتابة — التى هى مطلق خَطِّ الشىء — والتدوين — الذى هو جمع الصحف

فى ديوان يحفظها ـــ ومن خطَّأ الأئمة فإنما خطَّأهم لعدم إدراكه الفرق بين الكتابة والتدوين .

● لما كانت السنة المصدر الثانى للإسلام أحاطتها الأمة بالعناية والرعاية ، وبذلت فى خدمتها الكثير والكثير ، حتى سلمت وصينت ، وخُدمت على خير وجه .

وختاماً : أسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا التمسك بالقرآن الكريم والسنة النبوية ، وأن يفقهنا فى دينه ، ويمن علينا بالرضا والقبول .

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

والحمد لله رب العالمين

المعادى فى : ٢١ رمضان سنة ١٤٠٧
١٩ مايو سنة ١٩٨٧

* * *

فهرس الكتاب

* * *

رقم الإيداع ١٩٨٩/٩/١

الترقيم الدولى ٢ ــ ٢٤٧ ــ ١٤٢ ــ ٩٧٧

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ ـ شارع نشاطى شبرا القاهرة
الرقم البريدى ــ ١١٢٣١